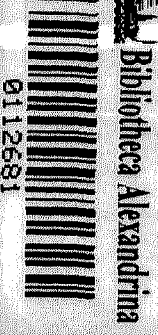
نوال السعداوي



الغائب



رواية

دار الادب-بيروت



الغائبُ

الطبعة الاولى - القاهرة

الطبعة الرابعة
١٩٨٧

نوال السعداوى

الغائب

منشورات دار الآداب - بيروت



فتحت عينيها فى ذلك الصباح وهى تشعر بانقباض غريب ، يزحف فى عروقها كنمل له دبيب ، ثم يتجاذب ويتجمّع فى قلبها ، ويلتصق بعضه ببعض متكورا كجلطة دم ، تحتك بجدار قلبها حين يصعدصدرها أو يهبط كلما لاح لها أن تعطس أو تسعل أو تتنفس بعمق .

وفركت عينيهـا وهى لا تفهم سـبب هـذا الانقباض ، فالشمس ساطعة ككل يوم ينفذ ضـوؤها اللامع من خلال زجاج النافذة ، ويسـقط على مرآة الدولاب ، فتعكس نورا كالوهـج الأحمر فوق الجدار الأبيض واوراق شجرة الكافور تلمع فى الضوء ككل يوم وترتعش كقراميط صغيرة من السـمك ، والدولاب والشماعة والرف وكل شيء فى مكانه فى الحجرة .

ورفعت الغطاء عن جسمها ونهضت فوق قدميها الحافيتين، وسارت الى المرآة بغير إرادة ، لماذا تنظر فى وجهها بمجرد ان تصـحو من النوم ؟ أنها لا تعرف تماما ما السـبب ، ولـكنها تحس بأنها تريد أن تطمئن الى أن شيئا غريبا لم يحدث لهـا أثناء النوم ... ان رقعة بيضاء مثلا لم تزحف من بياض عينيها لتلتصق بالنني الأسود ، أو أن ورما لم ينمُ فوق طرف انفها المدبب .

ونظرت فى المرآة ، ورأت وجهها الذى تراه كل يوم ، البشرة السـمراء بلون اللبن الممزوج بالكاكاو ، والجبهة العريضة تتهدل

فوقها خصلة شعر غزيرة سوداء ، وعينان خضراوان فى داخل كل منهما نواة صغيرة سوداء ، وانف طويل حاد ، وفم .

وسحبت عينيها بسرعة من فوق فمها ، فهى تكرهه ، انه هو الذى يفسد شكل وجهها ، تلك الفرجة اللاارادية القبيحة ، كانما كان يجب أن تنمو شفتاها أكثر مما نمت ، أو أن تنمو عظام فكيها أقل مما نمت ، وسواء أكان هذا أم ذاك ،فان شفتيها لا تنطبقان بسهولة ، وتظل هناك فرجة دائمة ، تطل من تحتها أسنان بيضاء بارزة .

وشدّت شفتيها وأغلقت فمها ، وراحت تنظر فى عينيها، انها تنظر فى عينيها دائما حين تتفادى النظر الى فمها ، فعيناها فيهما شيء ، شيء ما يميزهما عن النساء كما يقول لها فريد .

ورنّت كلمة فريد فى راسها ، وانقشعت عن عينيها غشاوة النوم واستيقظت تماما ، وتذكرت بوضوح شديد ، ويقين لا يقبل الشك ، ماحدث ليلة الأمس ، وعرفت سبب ذلك الانقباض الذى جثم فوق صدرها ، فان فريد لم يأت فى الموعد الذى اتفقا عليه ليلة أمس .

واستدارت لتترك المرآة ، ولتخرج من باب حجرتها الى الحمّام ، لكنها لمحت التليفون فوق الرف بجوار السرير ، ووقفت لحظة ، ثم سارت الى طرف السرير وجلست تصوّب الى التليفون نظرة طويلة ، ومدت أصبعها لتضعه فى الثقب ولتدير القرص الخمس الدورات ، لكنها سحبت يدها ووضعتها بجانبها فوق السرير . كيف تطلبه بعد أن أخلف الموعد بغير اعتذار ؟.. أليس من الممكن أنه أخلف الموعد عن عمد ؟.. وأنه لا يريد أن يراها ؟ ، وان حبه انتهى ؟ انتهى ، كما ينتهى أى شيء ، بسـبب ، أو بغير سبب ، وما فائدة أن تعرف السبب مادام قد انتهى ، وهل يمكن أن تعرف السبب ؟ انها لم تعرف لماذا بدأ ، كان يقول انه يرى فى عينيها شيئا ما وشيئا لايراه فى عيون الأخريات، شيئا يميزها عن النساء.

ونهضت من جوار التليفون وسارت الى المرآة ونظرت فى عينيها. كانت تمعن النظر وتبحث عن ذلك الشىء ألما ، ورأت الدائرتين البيضاوين الواسعتين تعوم داخلهما الدائرتان الخضروان تتوسط كلا منهما تلك الحبة السوداء الصغيرة ، عينان .. كأى عينين ، كعينى الخروف ، أو البقرة ، أو الأرنب المذبوح .

أين هو ذلك الشىء الذى رآه فريد ، والذى رأته هى بعينها ، رأته أكثر من مرة يطل من داخل هاتين الدائرتين الخضراوين ، كان يطل منهما ، بارزا متحركا ككائن حى ، أكان يتحرك ؟ .. كيف كان يتحرك ؟.. انها لا تذكر كيف كان يتحرك ، ولا تذكر أنه كان يطل من الدائرتين الخضراوين ، ربما كان يطل من مكان آخر ، من أنفها .. من فمها .. ! آه .. لا .. ليس فمها ، ليس من تلك الفرجة القبيحة ...

لم يكن هناك شىء ما ، انها لم تره ، لم تره يطل من شىء ، فريد كان يكذب ، ولماذا كان يكذب ؟ .. كان يكذب كما يكذب أى أحد ، ما الغريب فى أن يكذب أى أحد ؟ ... ولكن فريد لم يكن أى أحد .. كان مختلفا ، كان مختلفا عن الآخرين ، وكيف كان مختلفا ؟.. انها لا تعرف تماما ولكن كان هناك شىء ما فى عينيه يجعلها تحس أنه مختلف ، نعم كان هناك شىء ما فى عينيه لا تراه فى عيون الرجال ، شىء ما يلمع ويطل من عينيه البنّيتين ، بارزا متحركا ككائن حى . وماذا كان هذا الشىء ؟ ، انها لا تتذكر ، أنها لاتعرف تماما ماذا كان، ولكنها رأته، نعم رأته بعينيرأسها هاتين.

وصوّبت اصبعها الى عينيها فاصطدم بزجاج المرآة ، وتنبّهت ، ونظرت الى الساعة ، كانت الثامنة ، وتركت المرآة بسرعة ، فقد حان موعد ذهابها الى الوزارة .

توقفت مرة أخرى أمام الدولاب ، فقد دخلت كلمة الوزارة مع الهواء الى أنفها كحصوة مدببة ، وحاولت أن تعطس لتطردها

لكن الهواء دفعها بقوة الى صدرها ، واستقرت فى قاع صدرها ، في ذلك الخندق المثلث تحت ضلوعها ، أو بعبـــارة أدق عند تلك الفوهة التى تفتح على معدتها .

كانت تعرف أنها ستستقر فى هذا المكان ، انها ترتع فى تلك المساحة الخصبة ، تأكل وتشرب وتنتفخ ، نعم كانت تنتفخ كل يوم ، وتضغط بجسمها الصلب على معدتها ، التى كثيرا ما حاولت ان تلفظها ، فتنقبض عضلاتها وتنبسط ، وقد تفرغ كل ما فى جوفها ، لكن الكتلة الصلبة المدببة تبقى ، تحك بجدار معدتها كدبوس ، ملتصقة به ، قابضة عليه بأسنانها كدودة شريطية ..

وسارت الى الحمّام وهى تحس بالألم المزمن تحت ضلوعها، تصاحبه رغبة فى القيء لا تتـــحقق ، وأسندت رأسـها الى حائط الحمام ، انها مريضة ، مرضها حقيقى ، وليس ادعاء ، ولا يمـكن لها ان تذهب الى الوزارة .

ودب بعض النشاط فى جسمها الناحل ، وسارت بخطوات سريعة الى السرير ، ثم قفزت فوقه ، ودخلت تحت اللحاف ؛ وكان يمكن أن تغمض عينيها وتنام لكنها تذكرت أنها يجب أن تطلب مدير القسم فى التليفون وتعتذر له عن غيابها بسبب المرض .

وسحبت التليفون من فوق الرف ، ووضعته فوق ركبتيها، ورفعت السماعة ، ولكنها أعادتها بسرعة الى مكانها ، فقد تذكرت انها استنفدت إجازاتها المرضية جميعا ، ولا يمكن لأي مرض أن يشفع لها ، بل لا يمكن للموت أيضا أن يمنحها إجازة ، فقد أدعت الموت لكل أفراد أسرتها واحدا وراء الآخر ، ولم يبق على قيـد الحياة الا هي ، وهي لا تزال فى الثلاثين ، ولا يمكن لمدير القسم أن يصدّق خبر موتها بسهولة .

ونهضت مرة أخرى تجرّ جسـمها الثقيل ، وتضغط بأصبعها فوق معدتها ، ومرّت بالمرآة متفادية النظر اليها ، وارتدت ملابسها،

واتجهت الى الباب ، وبينما هى تفتح الباب سمعت صوت أ
الواهن ينبعث من المطبخ قائلة :
ـ ألن تشربي الشاي ؟ ..
ـ ليس عندى وقت .
واغلقت الباب خلفها وخرجت الى الشارع .
كان الشارع مزدحما ، لكنها لم تكن ترى شيئا ، ؟
عيناها لا تنظران الى الخارج ، وكان من الممكن أن تصطدم بشء
أو جدار ، لكن قدميها كانتا تسيران وحدهما ، بدراية عظيه
تصعدان فوق الرصيف وتهبطان من فوق الرصيف تتفاد
حفرة ، وتلفان حول كوم من الطوب ، فكأن فى قدميها عينين أخري
وتوقفت قدماها عند محطة الأتوبيس . كان الزح
شديدا ، وكانت الأجساد ترتطم بها ، وداس شخص على قد
وكاد يفرمها لكنها لم تحس الا ضغطا ما فوق حذائها ....
تعرف أنها داخل الأتوبيس الا بتلك الاهتزازة التى تصـ
جسدها ، وتلك الرائحة الغريبة ، التى لا تعرف تماما ما هو
فهى رائحة لا يألفها الأنف ، ولا يعرف كيف يردها الى مصدره
فليس لها مصدر واحد ، ليس هو الزوايا المنفرجة تحت الابط
وليس هو الكهوف المظلمة اللاهثة وليس هو القشرة المشـ
الخشنة يلتصق بها الشعر اللزج .
وتنبهت الى شىء ما مدبب يضغط على كتفها ، وكا
قد احست به ولم تعره اهتماما . ان ضغوطا كثيرة ، تضغط من
ناحية على أعضائها جميعا ، فلماذا تخص كتفها بهذا الاهتمام
ولكنها سمعت صوتا خشنا حادا يدخل أذنها كمسمار : التذكر؛
.. وانتشر فوق وجهها رذاذ صغير كبشائر المطر . وفتحت حقيب
بأصابع مرتجفة ، فالرجل ينظر اليها نظرة غريبة ، كنظرة شرء
الى لص محترف ، وهو يزمجر بكلمات لم تسمعها كلها ، لكـ
التقطت منها كلمتى ذمة وضمير .

وأحست أن وجهها يسخن ، ليس لأنها سمعت هاتين الكلمتين ، فهما وحدهما هكذا بغير حواش وحروف أخرى لا يعنيان لها شيئا ، لكنها رأت العيون كلها من حولها تتجه نحوها ، وفي كل عين منها نظرة غريبة ، كأنهم يحسون من أعماقهم أنهم متهمون مثلها ويحاولون نفي التهمة عن أنفسهم ، ولكنهم يعلمون أنهم نجوا من العقاب ولم يبق لهم الا تلك الشماتة الخفية فيمن يقع منهم .

ولكنها كانت متهمة على أي حال ، ومادامت قد أصبحت متهمة ، فقد ضاعت حقوقها فى الاحترام ، واستباحت عيون الرجال أعضاء جسمها كما يستبيحون اعضاء المومسات ، وأحست بشيء يدفعها ، وتقلصت عضلاتها داخل المعطف الواسع ، ودفست رأسها فى الياقة العريضة ، ولم تثبت قدميها فى الارض لتترك جسمها فى مهب التيار المتجه نحو الباب . وانقضت لحظة لم تعرف مداها من الانضغاط العنيف كورقة شجرة أو فراشة توضع بين الكتب من أجل التحنيط ، ثم أحست بالضغط يزول فجأة ، واذا بجسمها يطير فى الهواء كريشة حمامة ثم يرتطم بالأرض كقالب الطوب .

نهضت تنفض التراب عن معطفها ، وشعرت بسعادة خفية حين تلفتت حولها فرأت مكانا لم تره من قبل ، فقد خيل اليها انها انتقلت الى العالم الآخر فى تلك اللحظة التى طار فيها جسمها فى الهواء ، لكن سعادتها لم تدم طويلا ، فقد وجدت نفسها بعد خطوات قليلة امام السور الحديدى الصدىء ، وضغطت الدودة المزمنة بأسنانها على جدار معدتها ، وباعدت ما بين فكيها لتفرغ ما فى جوفها ، لكن هواء جافا لاسعا اندفع من بين شفتيها ، ودمعة صغيرة تجمدت عند زاوية عينها اليمنى وأخذت تحك فيها كذرة رمل .

رفعت رأسها الى فوق ، ورأت من خلال القضبان الحديدية ذلك المبنى الاسود ، تتخلله بقع صغيرة صفراء تفضح لونه الأصلى ،

وعرفت بما يشبه اليقين ان هناك علاقة ما بين هذا المبنى وبين رغبة القيء المزمنة التى تشكو منها ، فهى تبدأ حين تذكره ، وتشتد شيئا فشيئا باقترابها منه ، ثم تبلغ درجتها القصوى حين تبلغه ، وتراه عينا لعين •

وقفت امام الباب الحديدى لحظة تتلفت حولها ، لم تكن تتعجل الدخول ، فلتؤخر دخولها لحظة ، من يدرى ؟ لعل فى هذه اللحظة بالذات تسقط قنبلة من الجو فوقه ، أو يرمى أحدهم عقب سيجارة مشتعلة فى مخزن الملفات ، أو تتوقف المضخة البالية فى صدر مدير القسم فيصاب بسكتة قلبية •

وانقضت اللحظة دون أن يحدث شيء ، فوضعت قدمها على عتبة الباب لتدخل وأبقت قدمها الاخرى على أرض الشارع، من يدرى ماذا يمكن أن يحدث بين لحظة وأخرى ؟ أشياء كثيرة تحدث فى الحياة بين لحظة وأخرى ، آلاف يموتون وآلاف يولدون براكين تنفجر وتبتلع البيوت ، زلازل أرضية تحدث وتدك المدن، أشياء كثيرة تحدث فى الحياة بين لحظة وأخرى ، أكثر مما يتخيله الناس ، فالناس لا تتخيل الا ما تعرفه ، وتفهم معناه ، وهل تعرف الناس ما معنى أن ينطلق صاروخ بين لحظة وأخرى ؟ •• ليس صاروخا عاديا ولكنه صاروخ له رأس نووية ، هل يمكن أن يتخيل الناس ماذا يمكن أن تكون الرأس النووية •• ؟ وماذا يمكن أن يدك لو سقط من الجو ؟ •• هل يعرف الناس أن السماء تزدحم بملايين من الكواكب تفوق الارض حجما ؟ ••• ألا يجوز ان يسقط كوكب من هذه الكواكب المعلقة فى الهواء فوق الارض فيدكها دكا ؟ •• أيمكن أن ينجو هذا المبنى القذر الاسود وحده من دون القارات الخمس ؟ •• أيمكن أن يظل مدير القسم معلقا فوق كرسي مكتبه فى الفضاء الخاوي يبل اصبعه فى فمه ، ويقلب بامعان فى دفتر الحضور والانصراف ؟ •• هذا لا يمكن أن يحدث ، واذا حدث فلن يقبله أى عقل ، وابتسمت

وهى تقول لنفسها نعم لن يقبله أى عقل ٠٠ لكن الابتسامة تجمدت فوق شفتيها ، فقد وجدت نفسها بلحمها ودمها وبكامل وعيها وارادتها فى فناء الوزارة .

وقفت بقامتها الطويلة النحيلة تتلفت حولها فى ذعر ، كأنما وطئت قدماها بطريق الصدفة أرضا ملغمة ، وبينما هى تقف على هذه الحال خيل اليها ان حركة ما غريبة ومفاجئة حدثت فى الفناء ، ورأت العربة الطويلة السوداء ذات البطن الاحمر تتهادى فوق أرض الفناء وكأن من تحتها ماء ، ثم تنزلق كحوت ضخم لتقف أمام سلم رخامى أبيض ، وليقف معها ، وعلى كل جانب من جنبيها صف من تماثيل خشبية ، يرتدى كل منها بدلة صفراء ٠

من اين جاءت هذه التماثيل فى هذه اللحظة الخاطفة ؟ ٠٠ انها لا تدري ... ربما كانت موجودة دائما هكذا دون ان تلحظها ، أشياء كثيرة لا تلحظها رغم انها موجودة ، أهى لحظت مثلا ان هناك سلما رخاميا له هذا اللون الابيض الناصع ؟.

واتسعت عيناها بالدهشة حين رأت واحدا من التماثيل يترك الصف ويتقدم نحو العربة بخطوات ، وهى ليست خطوات بمعنى الخطوات ، ولكنها اهتزازات وتشنّجات كتلك الحركات التى تصدر عن العرائس المتحركة ، وثنى نصفه الاعلى فوق نصفه الأسفل ، ومد ذراعا طويلا متصلبة ، وفتح باب العربة ٠٠

دعكت عينيها فى تلك اللحظة لتطرد ذرة الرمل الغائرة فى زاوية عينها اليمنى ، لكن ذرة الرمل بدلا من ان تطرد الى الخارج، ضغطت الى الداخل ، وحملقت بعينيها المحمرتين لترى ماذا يمكن أن يخرج من باب العربة ، ورأت أول ما رأت بوز حذاء رجالى اسود مدبب ، تبعته ساق رفيعة قصيرة لبنطلون رصاصي له ثنية عريضة منشّاة ثم خرج رأس كبير مخروطى ابيض تتوسطه رقعة صلعاء صغيرة عكست فوقها ضوء الشمس كمرآة ، ثم كتف رصاصى مربع ، ثم الساق الثانية القصيرة الرفيعة ..

وتذكرت وهي تشـــهد خروج ذلك الجســـم الآدمى عضوا عضوا،حالة ولادة شهدتها صدفة فى البلد وهى طفلة ، وكانت العربة لا تزال واقفة يرتفع ظهرها المقوس الاسود فوق مدخل السلم .

رأته يصعد السلم درجة درجة ، وفوق كل درجة يتـــوقف لحظة ، كانما ليلتقط أنفاسه ، فيثنى رقبته الى الوراء ، ويهتز رأسه الكبير الى الخلف كأنه سيسـقط من خلف ظهره ، لـكنه لا يسقط ، ويظل مشبوكا فى الرقبة .

كان يخيل اليها أحيانا انها تنظر اليـه من خـلال عدسـة مصغرة ، وكانت تظنه أحيانا عقلة الاصبع الذى كان بطل حكايات جدتها ، وأحيانا أخرى حين تكون شاردة كما كانت فى تلك اللحظة تنتهز حقيقته فرصة شرودها لتفرض عليها نفسها كوكيل لوزارة الكيمياء الحيوية التى تعمل فيها موظفة .

وابتلعه الدهليز الواسع ، واختفت العربة ، وفقدت التماثيل قوامها الصلب ، وارتخت عضلاتهم وتهدلت ، وساروا بســـيقان معوجة الى الدكة الخشبية الملاصقة للسلم فجلسوا عليها ، وراحوا ينظرون اليها وهى تمر من جوارهم بعيون نصف مغمضة ، وافواه نصف مفتوحة ، وقد يدس أحـدهم فى فمـه لقمـة خبز بالجبن القريش ، أو يخرج صحن الفول المدمس من تحت الدكة .

واجتازت الفناء الواسع ، ودارت حول المبنى الاسود حتى بلغت ظهره ، وظهر المبنى كظهر أى شيء ، اكثر ســـوادا ، اكثر خشونة وغلظة ، ووقفت لحظة أمام الباب الخشبى الصـــغير ذى الضلفة الواحدة ، ترتسم فوقه بسواد كالهباب أشكال مختلفة : منها أصابع آدمية ، ومنها دوائر كالاكف ، وحروف كلمات مبتورة ، ورأت كلمة انتخبوا وقد طمس السواد حروفها الثلاثة الاخيرة .

سارت فى الدهليز الضيق المظلم ، وصعدت السلم ، وقفزت قدماها المدربتان فوق الدرجة المفقودة ، وتفادتا قضيب الحديد

البارز من «الدرابزين» ، ووصلتا الى الدور الرابع وانحرفتا الى اليمين لتعبرا ممرا طويلا ، وفاحت رائحة البول النتنة ، وأشاحت بأنفها بعيدا عن باب دورة المياه ، ثم دخلت من الباب الثانى المجاور لها ، فأصبحت فى مكتبها .

سارت الى مكتبها وجلست ، وأخرجت من الدرج فوطة صفراء ومسحت التراب من فوق المكتب فبدت قشرته السوداء وقد انتزعت فى بعض أجزائها وظهر من تحتها لحم المكتب الابيض وأعادت الفوطة الى مكانها فى الدرج ثم رفعت رأسها ، ورأت المكاتب الثلاثة الاخرى ملتصقة بعضها بالبعض فى صف واحد طويل ، ومن فوقها تبرز الرءوس الثلاثة المحنطة ..

كانت الرائحة النتنة لا تزال فى انفها ، وقد آضيفت اليها رائحة أخرى غريبة كتلك الرائحة التى تبيت فى حجر النوم المغلقة المحكمة الاغلاق ، ونهضت لتفتح النافذة لكن صوتا غليظا أشبه ما يكون بزمجرة حيوان مريض قال : الدنيا برد ! لا تفتحي .

عادت لتجلس الى المكتب ، وأخرجت من الدرج ملفا كبيرا ، وتأملت الغلاف السميك الخارجي ، ومن فوقه رقعة صغيرة بيضاء كتب عليها : الابحاث الكيماوية الحيوية . انه خط يدها ، والحروف مكتوبة بعناية واناقة ، كل حرف ضغط عليه بالقلم الحبر ، انها تذكر كيف ضغطت بالقلم على كل حرف ، كان القلم جديدا ، ودواة الحبر جديدة ، لا تزال تذكر رائحة الحبر ، كان ذلك منذ ست سنوات لكنها تذكر الرائحة ، وتذكر شكل أصابعها وهى تضغط على الحروف ، كانت قد وقعت قرار استلامها العمل الجديد فى قسم الابحاث الكيماوية الحيوية ، وارتجفت أصابعها وهى تكتب أسمها تحت القرار الرسمي ، أول مرة توقع قرارا رسميا ، أول مرة يكون لتوقيعها قيمة رسمية .

وفتحت الغلاف ، وظهر لها بطن الملف الاصفر ، وقد شبك

فيه من الوسط قضيب رفيع من الصفيح ، تتدلى منه ورقة بيضاء ، ليس عليها خط واحد .

أغلقت الملف وأعادته الى الدرج ثم رفعت رأسها الى السماء ، لكن عينيها اصطدمتا بالسقف ، فنهضت وسارت لتقف بالقرب من النافذة ، ولتنظر من خلال الزجاج المتسخ الى السماء .

شيء ما في السماء يجعلها تستريح ... ربما الاتساع ، ربما اللون الازرق القوي الثابت تحت ذلك البياض الزاحف ، أو ربما لأن السماء تذكرها بفريد .

وهي لا تعرف ما العلاقة بين السماء وفريد ، ولكنها تعرف ان هناك علاقة ما بينهما ، ربما لانها تكون موجودة دائما حين يكون فريد موجودا ، أو لانها تكون موجودة أيضا حين يغيب . وفريد لم يات ليلة أمس الى الموعد ، أول مرة يخلف الموعد ، ولم يتكلم فى التليفون ولم يعتذر . ما الذى حدث .. ؟

وبدت السماء ثابتة صامتة كأنها متواطئة معه ، وواصلت السحب البيضاء زحفها وكأن شيئا لا يعنيها ، وبرزت رءوس الاشجار من فوق المباني البعيدة سوداء متعرجة كالأورام .

فريد غاب لسبب ، كل شيء يحدث فى الحياة لسبب ، الاشياء التى ظنت يوما أنها حدثت بغير سبب اتضح سببها بعد حين ، ولكن ما السبب .. قد تكون هناك حادثة أو مرض أو موت عزيز ، وقد يكون شيئا آخر . ونقرت بأصابعها فوق زجاج النافذة ، نعم ، قد يكون شيئا آخر أراد فريد أن يخفيه . كان يخفى أشياء ، كان يخفى أوراقا فى أدراج مكتبه ، وكان يغلق الباب أحيانا حين يتكلم فى التليفون .

كانت هذه أشياء عادية لا تلفت نظرها ، كل واحد له أسرار يجب أن يخفيها ، خطابات غرامية قديمة ، كمبيالات لم تسدد ، عقود ايجار ثلاثة قراريط فى البلد ، صورة أمه بالجلباب والقبقاب

صور طفولته بطربوش زرّه ضائع . نعم هناك دائما أشياء يحب الواحد أن يخفيها فى درج ، انه لا يستغني عنهـا من حين الى حين ، وليس هناك ضرر فى أن يضعها فى درج مغلق فى أسفل المكتب . ولكن أحاديث التليفون الطويلة من وراء الباب المغلق .. ما تفسيرها ؟

وضغطت بكعب حذائهـا فوق الأرض فدخل فى ثقب حفرة فار أو صرصار فى الخشب ، وشدت قدمهـا لتخرج كعبهـا من الثقب فانخلع حذاؤها . وانثنت فوق الارض وأخرجت الكعب وهى تنظر حولها . كانت الرءوس الثلاثة المحنطة لا تزال فى وضعها الا من تغيير طفيف . ونظرت فى الساعة ، كانت العاشرة والنصف، امامها ثلاث ساعات ونصف لتخرج من هذا القبر ، وجلست الى المكتب لحظة ، ثم نظرت الى الساعة ، كان العقربأن الرفيعان قد تجمدا فـوق الساعة العـاشرة . ودست حقيبتها تحت ابطها ، ونهضت ثم خرجت مسرعة .

وقفت لحظة فى نهاية الممر قبل أن تهبط السلم ، وفكرت أن تصعد الى الدور الخامس وتعتذر لمـدير القسـم عن خروجها المبكر ، ووضعت قدمها فوق السلم ، لكنها بدلا من أن تصعد هبطت بسرعة وهى ترفع كتفيها ، وتخفض رأسها الى ما تحت ياقة المعطف العريضة .

ابتعدت بسرعة عن السور الحديدى ، فاصبحت فى الشارع الواسع المزدحم ، وتركت كتفيها ورأسها تعـود الى وضـعها الطبيعى ، وسقطت آشعة الشمس فوق ظهرها فاحست بشيء قليل من اللذة ، كان يمكن أن يكون أكثر من ذلك لولا تلك الهموم التى تثقل قلبها ، ورأت المرأة الجالسة فوق الرصيف ، ويدها الفارغة ممدودة للناس ، وفى حجرها الطفل الصـغير ، واشـعة

الشمس تغرق جسمها كله ، وهي جالسة هادئة ساكنة ، لاتجرى هاربة من الوزارة ، ولا يثقل قلبها كل تلك الهموم .

وتركت قدماها تسيران ببطء ، لكن حركة الشارع السريعة انتقلت اليها كأنما بالعدوى ، فوجدت قدميها تسرعان الخطى كأنها ذاهبة لتلحق بموعد هام ، ولم يكن هناك موعد هام أو غير هام ، لم يكن هناك أى شيء ، ولم تكن تعرف الى أين هى تسرع .

والتقطت عيناها من وسط الناس المسرعين ، فتاة طويلة نحيلة ، خيل اليها أنها تشبهها ، فقد كانت تمشي بسرعة ، وتقذف بنصفها الأعلى الى الأمام وكأنها على وشك ان تجري ولكن الخجل يمنعها ، وفى يدها حقيبة تهتز ، حقيبة جلدية سوداء كتلك الحقائب التى يحملها الأطباء أو المحامون أو كبار الموظفين ، كانت الحقيبة منتفخة ، ولا بد ان بداخلها أوراقا كثيرة وهامة ، وأشارت الفتاة الى تاكسى ثم قفزت فيه بنشاط ومرح واختفت . انها تعرف الى أين هى ذاهبة ، وقدماها تقفزان فى نشاط ومرح ، لا شك أنها مشغولة جدا ، ومنهمكة جدا ومستغرقة جدا ، انها تؤدي عملا هاما ، وهى سعيدة بهذا العمل ، راضية عن نفسها ، تحس أنها شيء هام ، نعم انها شيء هام .

وأطبقت شفتيها وزمّتهما لتزدرد ريقها ، انها شيء هام ، وليست مثلها متعطلة تتسكع فى الشارع بغير هدف . وأحست أنها تحسدها ، نعم ان الحسد هى الكلمة التى يمكن أن تصف شعورها فى تلك اللحظة ، وهى لا تعرف معنى كلمة الحسد ، ورثتها كما ورثت أنفها وذراعيها وعينيها ، وهى تعرف ان الحسد عمل خارجى ، أى أنها لا يمكن أن تحسد نفسها ، ولا بد من وجود شخص آخر لتحسده ، ولا بد لهذا الشخص من صفات يستحق بها الحسد ، كأن يكون شيئا هاما ، ليس شيئا هاما مجردا ، ولكنه شيء هام بالنسبة لنفسها .

ووضعت يدها فى جيب المعطف وراحت تلعب بأصابعها فى ثقــوب البطانية الحريرية كأنها تبــحث عن شيء ما هام داخل نفسها ، واكتشفت فجأة ان ليس لنفسها شيء هام ، لم يكن اكتشافا ، ولم يكن فجأة ، ولكنه شعور مبهم متدرج بطيء بدأ منذ مدة لا تعرف مداها ، ربما بعد ان تخرجت فى كلية العلوم ، ربما بعد أن اشــتغلت فى الوزارة ، ربمـــا أمس فقط حين ذهبت الى المطعم ووجدت المائدة خالية ، أو ربما فى هذا الصباح حين اندس بين ردفيها ذلك الشيء المدبب وهى تقفز من الأتوبيس .

وابتلعت لعابا مرا وحركت لسانها الجاف وهى تقول لنفسها بصوت يكاد يكون مسموعا : نعم ، أنا لست شيئا .

كان يمكن أن تردد مرة أخرى وتقول أنا لست شيئا ، لكن عضلات شفتيها تقلصت ، فماتت الحروف فى بطن فمها حيث زادت المرارة وأصبحت تلسع كالحامض .

ورفعت رأسها الى فوق ، وراحت عيناها تفتشان فى السماء كأنما تبحث عن شيء ، نعم كانت تبحث عن شيء ، فقد تذكرت صوت أمها وهى تقول :

« ربنا يفتح عليك يافؤادة يابنتى وتخترعين اختراعا عظيما فى الكيمياء » .

ورأت الزرقة لهـا مســام مسدودة ، والســحب البيضاء تزحف فوقها بحركتها نفسها اللامبالية ، وأطرقت رأسها الى الأرض وهمست لنفسها بصوت لم يسمعه أحد : ظنونك خابت يا أمى وارتطمت دعواتك بسماء مصمتة .

ومصمصت شفتيها : اختراع عظيم فى الكيمياء ! .. ماذا كانت تعرف أمها عن الكيمياء ؟.. ماذا كانت تعرف عن الاختراع؟.. كانت فؤادة ابنتها الوحيدة ، وكانت ترضى طمـوحها النـاقص فيها ، وعلى عكس الأمهات فى تلك الأيام لم تكن تفكر فى زواجها ،

فلم يكن طموحها من ذلك النـــوع النسوى العادى ، كانت قبل أن تتزوج قد ذهبت الى المدرسة ، وربما قرأت بعض القصص ، ربما قرأت رواية عن فتاة تعلمت وأصبحت شيئا عظيما ، ربما هى قصة مدام كورى أو واحدة أخرى من النســاء الخـالدات ، لكنها فتحت عينيها ذات صباح فلم تجد مريلة المدرسة كما تركتها فى الليلة السابقة فوق الشماعة ، وســمعت صوت أبيها الخشن يقول : لن تذهبى الى المدرسة . وجرت الى أمهـا تبكى وتســأل عن السبب . ولم يكن السبب سوى الزوج ، وكان هذا كافيا لأن تكرهه من أول نظرة ، وظلت تكرهه حتى مات ، وبعد ان مات وكانت فؤادة لا تزال فى المدرسة الثانوية قالت لها أمها وهى تسوى شعرها الأسود الناعم أمام المرآة وتتأمل قوامها المشوق :

مستقبلك فى المذاكرة يابنتى ، الرجل ليس له فائدة .

كانت أمنية أمها أن تدخل فؤادة كلية الطب ، ولكنها لم تحصل على مجموع عال فى نهاية المرحلة الثانوية . ربما لأنها لم تستذكر كثيرا ، أو ربما كانت تجلس فى حصة التاريخ بجوار النافذة ، وتشرد عيناها بعيدا ، الى تلك الشجرة الكبيرة تنتشر فوقها زهور حمراء كثيرة متلاصـــقة فكأنها عمـامة نثر فوقهـا مسحوق النحاس الأحمر ، واكتشفت وهى جالسة فى حصـة التاريخ انها تحب لون مسحوق النحاس الأحمر ، وأنها تحب حصة الكيمياء ، وانها تكره التاريخ ، لم تكن ذاكرتها تعي أسـماء الملوك والحكام الذين حكموا مصر قبل ان يموتوا ، لم تكن تفهم لماذا يضيع الأحياء وقتهم فى اجترار ما فعله الأموات ، لقد مات أبوها ، ولعلها فرحت قليلا حين مات . لم تكن فرحتها بسبب شيء معين ، فلم يكن أبوها شيئا معينا فى حياتها ، كان مجرد أب ، ولكنها فرحت لأنها احست ان أمها فرحت ، وسمعتها بعد أيام تقول لم يكن له فائدة كبيرة ، واقتنعت بكلامها كل الاقتناع ، فماذا كانت فائدة أبيها ... ؟

لم تـكن ترى أباها الا يوم الجمعـة ، فقد كان يجىء الى البيت بعد أن تنـام ويخرج قبل أن تصحو ، وكان البيت هادئا نظيفا فى كل الأيام ماعدا يوم الجمعة ، كان أبوها يبلل الحمام حين يستحم ، ويخرج من الحمام ليبلل الصالة ، ويقذف بملابسه المتسخة فى كل مكان ، ويرفع صوته الخشن بين لحظة وأخرى ، ويسعل كثيرا ويبصق كثيرا ويتمخط بصوت عال حاد ، وكانت مناديله كثيرة جدا وقذرة دائما ، تضعها أمها فى المـاء المغلى وتقول لهـا : لأطهرها من الجراثيم ، ولم تعرف فؤادة يومهـا ما معنى الجراثيم ، لكنها سمعت مدرّسة الصحة والاشياء تقول فى احدى الحصص أن الجراثيم أشياء صغيرة ضارة بالانسان ، وسألت مدرّسة الفصـل فى ذلك اليـوم : أين توجد الجراثيم يابنات ٠٠ لكن الفصل ظل ساكنا ، ولم ترفع واحدة من البنات أصبعهـا ، وأحست فؤادة أنها تعرف الجواب فرفعت أصـبعها الى أعلى فى ثقة وكبرياء ، وابتسمت المدرّسة لتشجعها وقالت فى رقة : هل تعرفين أين توجد الجراثيم يافؤادة ٠٠ ونهضت فؤادة واقفة رافعة رأسها فوق البنات وقالت بصوت عال ملىء بالثقة : نعم يا أبلة ، الجراثيم توجد فى مناديل أبى ٠

***

وجدت فؤادة نفسها فى البيت ، فى حجرة نومها ، جالسة على طرف السرير تحملق فى التليفون الراقد فـوق الرف ٠ لم تعرف كيف حملتها قدماها كل تلك المسافة الطويلة وكيف صعدتا فى الأتوبيس ، وكيف هبطتا منه فى المحطة الصحيحة ، وكيف سارتا من المحطة الى البيت ، كيف فعلتا ذلك كله وحدهما دون ان تدري هى ، ولم تفكر فى هذا الأمر التافه طويلا ٠ فهى لا تتصور ان هذه صفة تفرد أو تميز تحظى بها قدماها ، فاقدام الحمار تفعل الشىء نفسه فى صمت وهدوء ٠

ومدت يدها الى التليفون ، ووضعت أصبعها فى القرص وأدارته الخمس الدورات المعهـــودة ، وجاءها الجرس ، فأسندت ظهرها الى مسند السرير استعدادا لعتاب طويل ، وظل الجرس يرن ، ونظرت الى الساعة ، كانت الثانية عشرة ، فريد لا يخرج من البيت قبل الواحدة أو الثانية ، ربما يكون فى حجرة النوم يقرأ فى السرير ، وبين حجرة النوم وحجرة المكتب حيث التليفون ممر طويل ، ربما يكون فى الحمّام والجرس لا يسمع من وراء باب الحمام المغلق ، ورفعت عينيها الى النافذة ، ورات فروع شجرة الكافور تتلاعب من وراء الزجاج ، الشجر أيضا له قدرة على التلاعب ، وكانت السماعة لا تزال ملتصقة بأذنها ، والجرس الحاد يرن فيها رنينا عاليا وخطرت لها فكرة فوضعت السماعة لحظة ثم رفعتها وعادت تطلب الرقم من جديد وتأكدت أنها تضع أصبعها فى الثقب الصحيح ، وما ان توقف القرص بعد الدورة الخامسة حتى انطلق الجرس فى أذنها كالقذيفة ، وظلت ممسكة بالسماعة الى جوار اذنها فترة طويلة ، تكفى لخروج أى شخص من حمام ، أو لا ستيقاظه من النوم ، وخطرت لهـا فكرة أخرى فوضعت السماعة لحظة ثم رفعتها وطلبت الدليل ، وسألت عما اذا كان هناك عطل ما فى التليفون ورد عليها الصوت الناعم المطوط بعد لحظة يقول :

التليفون سليم ، معك الجرس .

ودوى الجرس فى أذنها مرة أخرى حادا عاليا لا ينقطع ، فوضعت السماعة فى مكانها فوق التليفون واسندت رأسها الى حافة المسند وراحت تحملق فى النافذة .

لم تكن فكرت من قبل فى علاقتها بفريد ، كانت تعيشها فحسب ، لم يكن هناك متسع للاثنين معا ، أن تعيشها وان

تفكر فيها ، وكان فريد مشغولا دائما ، يقضي الساعات مع كتبه واوراقه ، قد يقرأ ، وقد يكتب أشياء يضعها بعناية فى درج المكتب ويغلق الدرج بالمفتاح ، وكان يخرج عصر كل يوم ويتاخر ليلا ، وقد يقضي بعض الليالى خارج البيت ، ولم تكن تسأله اين يذهب، لم تحب أن تقوم بدور الزوجة المستجوبة ، بل لم تحب أن تقوم بدور الزوجة على الاطلاق ، كانت تعشق حريتها ، وتعشق حجرتها الخاصة ، وسريرها الخاص ، وأسرارها الخاصة ، واخطاءها الخاصة ، لم تكن لها أخطاء بمعنى الاخطاء ، ولكنها كانت تحب ان تختفي احيانا فلا يعرف فريد طريقها ، وكانت تطرب لكلمات الاعجاب حين تسمعها من فم رجل ، طربا لذيذا خاليا من الدهشة ، فقد كانت على يقين من ان فيها شيئا ما يستحق الاعجاب . لكن فريد كان محور حياتها ، كانت تبتلع ايامها كجرعة من زيت الخروع ، ثم يهل يوم الثلاثاء باشراقته العجيبة ، الثلاثاء هو موعدها مع فريد ، كل ثلاثاء فى الثامنة مساء فى ذلك المطعم الصغير اذا كان الجو دافئا ، أو فى بيته فى ليالى الشتاء القارصة . كم شتاء مر على علاقتهما ؟ .. انها لا تعرف تماما ، ولكنها تعلم أنها تعرف فريد منذ زمن بعيد ، وربما بعيد جدا .

كم شتاء مر ، وكم ثلاثاء مر ، وفى كل ثلاثاء يأتى فريد ، لم يخلف الموعد مرة واحدة ، ولم يكذب مرة واحدة ، ربما أخفى عنها أشياء ، لكنه لم يكذب ، حتى حينما جاءت سيرة الزواج من حيث لا يدريان قال لها وهو ينظر اليها بعينيه البنيتين اللامعتين : لن استطيع الزواج فترة من الزمن . لو قالها اى رجل آخر فربما أحست بشك فيه ، أو بطعنة فى كرامتها ، لكن فريد كان مختلفا وكان كل شيء معه يصبح مختلفا . حتى الكلمات تفقد معناها التقليدى المعروف ، والأسماء قد تبدو فجأة وكأنها لا تنطبق

على الأشياء التي سميت بها ، أو تبدو فارغة المعنى بغير محتوى. كلمة كرامة مثلا ، ماذا تعني كلمة كرامة .. ان يحافظ الانسان على عزة نفسه ؟ .. ضـــد من ؟ .. ضد الآخرين ؟ .. نعم ، لا بد ان يكون هناك آخرون ليدافع الشخص عن عزة نفســه ضدهم .

ولكن لم يكن بينها وبين فريد شيء اسمه آخرون ، أو شيء اسمه نفسها ضد نفسه ، كانا يتبادلان كل شيء فى الحب حتى نفسيهما ، فتصبح هى نفسه ويصبح هو نفسها ، ويدافع هو عن حقوقها ، وتتولى هى الدفاع عن حقوقه . كان شيئا غريبا ذلك الذى يحدث بينهما ، ولكنه كان يحدث بسهولة ، ومن تلقاء نفسه، كهواء يدخل الأنف.لقد كان شيئا طبيعيا جدا .

وسمعت صوت قدمي أمها تزحفـان فى الصالة ، فى اتجاه حجرتها فنهضت بسرعة وبدأت تتحرك فى الغرفة ، انها لا تحب ان تدخل حجرتها فتراها ساهمة تحملق فى الفضاء كالمعتوهين . ورأت أمها وهى تقف على عتبة الباب بطرحتها البيضاء وجلبابهـا الطويل وتقــول لهــا بصوتها الضعيف المبحوح ، آراك بملابس الخروج . هل ستخرجين ؟ ... وردت عليها بغير تفكير سابق فى الخروج : نعم . وقالت أمها : والغداء ؟ ... وأمسكت فؤادة حقيبة يدها استعدادا للخروج وهى تقول : لا أشعر بجوع .

لم تكن فؤادة تعرف لماذا خرجت ، كانت تريد الا تبقى فى البيت ، كانت تريد أن تتحرك ، وأن ترى حركة من حولها ، وان تسمع صـــخبا عاليا ، يعلو على ذلك الجرس الذى يرن فى أذنيها باصرار واستمرار لا ينقطع . وخرجت من شارع بيتها ، وانحرفت الى اليمين لتسير بحذاء السور الحجرى لمشتل الزهور ، ورأت زهرات الياسمين البيضاء تلمع كقروش من الفضـــة فى ضـــوء

الشمس الساطع ، وامتدت يدها بحكم العادة وقطفت واحدة ، دعكتها بين أصابعها ، وامتلأ أنفها برائحة الياسمين فشعرت بالكتلة الثقيلة تتحرك فى قلبها . رائحة الياسمين كان لها معنى لقائها مع فريد ، وكان لها ملمس قبلاته فوق عنقها ، ولكنها الآن تعني غيابه ، وهى برائحتها القوية تركز هذا الغياب فيرسب فى أعماقها احساسا واقعيا كئيبا ، وكان كالوهم ، أو كالحلم الذى سينتهى حتما حين تصحو من النوم .

وتركت زهرة الياسمين البالية تسقط من بين أصابعها ، وسارت فى الشارع الضيق الصغير ثم خرجت منه الى شارع النيل ، وعرفت فجأة أنها لم تخرج من البيت بغير سبب ، أو لمجرد الحركة ، كان لها هدف محدد تريد أن تبلغه ، وسارت بضع خطوات قليلة فوجدت نفسها أمام باب المطعم الصغير .

ترددت لحظة وهى تدخل ، لكنها دخلت ، واجتازت الممر الطويل وسط الشجر ، وبدأ قلبها يدق ، فقد تصورت أنها ستخرج من هذا الممر لترى (فريد) جالسا الى المائدة ذات المفرش الأبيض ، ظهره ناحيتها ووجهه ناحية النيل ، كتفاه مائلتان الى الأمام قليلا ، وأذناه الصغيرتان محتقنتان بالدم ، وشعره الأسود يهبط فى غزارة خلف أذنيه ، وأصابعه الطويلة الرفيعة فوق المائدة تلعب بقصاصة ورق ، أو تقلب فى النوتة الصغيرة التى يحتفظ بها دائما ، أو تفعل أى شيء آخر ، ولكنها لا تبقى ساكنة أبدا .

نعم ، ستخرج من الممر فتراه جالسا هكذا ، وسوف تمشي على أطراف أصابعها حتى تقف خلفه ، وتمد ذراعيها حول رأسه وتغطي عينيه بيديها ، وسوف يضحك ويمسك يدها بقوة ، ويقبلها أصبعا أصبعا .

ودق قلبها بعنف حين وصلت الى نهاية الممر ، وانحرفت

الى اليسار خطوة لتخرج منه ، ورفعت راسها نحو المائدة ، ففاصت جلطة الدم فى قلبها ، كانت المائدة خالية ، عارية بغير مفرش أبيض . واقتربت منها وتحسست ظهرها وكأنها ستعثر على شيء نسيه فريد ، على ورقة صغيرة تركها لها ، لكن أصابعها لم تلمس الا ظهر المائدة الخشن المتعرج ، يضربه الهواء من كل ناحية كجذع شجرة عجوز .

ولمحها الجرسون فجاء اليها يبتسم ، لكنه رأى وجهها فأطرق الى الأرض ،وسارت نحو الممر ، وقبل ان تنحرف لتدخل فيه استدارت ونظرت الى المائدة ، كانت لا تزال خالية فاندفعت داخل الممر ثم خرجت من المطعم بخطوات سريعة .

لم تكن تعرف الى أين هى تسرع ، كانت تعرف أنها تفر تفر من المطعم ، ومن البيت ، ومن شارع النيل ، ومن كل تلك الأمكنة التى تذكرها بفريد . كانت الأمكنة متواطئة معه ، تخفي غيابه ، وتؤكد وجوده ، الامكنة أيضا تنافق كما ينافق الموظفون وأسرعت الخطى لتخرج من شارع النيل ، ولتبحث عن مكان محايد لم ير (فريد) ، ولم يعرفه ، ولن يكون متواطئا معه .

ووجدت نفسها فى شارع الدقي الفسيح ، ورأت أتوبيسا على وشك التحرك فقفزت فيه دون أن تعرف رقمه ، ووضعت قدمها على السلم ، وظلت القدم الثانية طائرة فى الهواء ، وامتدت اليها الايدى تساعدها على الطلوع ، واستطاعت أن تدس قدمها الثانية بين الأقدام الواقفة على السلم ، وأحاطت بها ذراع طويلة قوية لتحميها من السقوط ، ثم وجدت نفسها تدفع مع الاجسام الى داخل الأتوبيس .

واحدة من الملايين ، جسم من الأجسام البشرية التى تزحم الشوارع والمواصلات والمساكن . من هى ؟ ... فؤادة خليل

سالم ، انثى ، من مواليد الصعيد ، ورقم البطاقة ٣١٢٥٠٩٨ مركز شباط ، ماذا يمكن ان يحدث للعالم لو أنها سقطت تحت عجلات الأتوبيس ؟ ... لن يحدث شيء ، ستظل الحيـــاة كما هي تجرى لاهثة غير عابئة ولا مبالية ، ربما تكتب أمها نعيها في صفحة الوفيات ، ولكن ماذا يفعل سطر في جريدة ؟ ماذا يغير في العالم.. ؟

ودارت عيناها حولها في دهشة ، ولكن لِمَ الدهشة ؟ .. انها واحدة من ملايين فعلا ، وهي جسم من الأجسام المحشورة في الأتوبيس فعلا ، وهي لو سقطت تحت العجلات وماتت فلن يغير موتها من العالم شيئا ... ما وجه العجب في هذا ؟ ، لكنها كانت لا تزال تحس أنه عجيب ، انه شيء يثير دهشتها ، شيء لا يمكن أن تصدقه أو تقبله .

فهي ليست واحدة من ملايين ، ان في اعماقها شيئا يؤكد لها أنها ليست واحدة من ملايين ، انها ليست كتلة بشرية تتحرك ، انها لا يمكن أن تعيش وتموت فلا يحدث للعالم أي تغيير ، نعم ، في أعماقها شيء يؤكد ذلك ، ليس في أعماقها وحدها ، وانما في أعماق أمها أيضا ، وفي أعماق مدرّسة الكيمياء وفي أعماق فريد .

وزحف في رأسها صوت أمها تقول : ستكونين شـيئا عظيما مثل مدام كوري ، وتبعه صوت مدرّسة الكيمياء يقول : فؤادة شيء آخر غير باقي بنات الفصل ، وهمس صوت فريد في أذنها : فيك شيء لا يوجد عند الأخريات .

ولكن ما قيمة كل هذه الاصوات المنتهية . لقد دوت مرة أو مرات وأحدثت ذبذبات في الهواء ثم انتهت .. أمها قالت لها ذلك وهي صغيرة منذ زمن بعيد ، ومدرسة الكمياء قالتها وهي في المدرسة الثانوية منذ سنين كثيرة ، وفريد قالها ، نعم فريد قالها ، ولكن فريد صوته تلاشى في الفضـــاء ، وهو نفسه اختفى من الوجود .. فكأنه لم يكن أبدا موجودا .

وداست امرأة سمينة فوق قدمها ، ولكزها الكمسارى فى كتفها لتدفع التذكرة ، وامتد كف كبير من الخلف وضغط على فخذها، نعم جسم من الاجسام التى تزحم العالم ، وتملأ الجو برائحة العرق، واحدة من ملايين ، ملايين ، ملايين • وقالت بصوت عال دون أن تدرى : ملايين ملايين !•• وحملقت فيها المرأة السمينة بعينين واسعتين كعينى البقرة ، ونفخت فى وجهها رائحة البصل فأشاحت بوجهها الى ناحية النافذة ، ورأت من خلال الزجاج ميدان التحرير فاندفعت بكل قوتها لتنزل من الاتوبيس •

***

وقفت فى الميدان الواسع ، تتلفت حولها ، وترفع رأسها الى فوق لترى العمارات العالية ، وقد امتلأت واجهاتها بالاسماء ذات الخطوط العريضة ، أطباء ومحامون ومحاسبون وخياطون ومدلكون • الخ ، والتقطت عيناها لافتة كتب عليها : معمل عبد السميع للتحليلات • وفجأة اتضح فى رأسها شىء • كأنما صُوِّب نحو رأسها ضوء كشاف صغير ، ولاحت الفكرة فى رأسها واضحة فى النور الجديد ، كانت فى رأسها دائما ، كامنة فى الظلام ، لا يصدر عنها حركة ، لكنها كانت موجودة ، وكانت تعرف انها موجودة •

ولكنها لم تعد موجودة فحسب ؛ لقد بدأت تتحرك ، وتخرج من ركنها المظلم الى منطقة الضوء ، واستطاعت فؤادة أن تقرأها ، نعم لقد كانت مكتوبة بخط عريض واضح فوق واجهة العمارة : معمل فؤادة للتحليلات الكيميائية •

كانت هذه هى الفكرة المزمنة فى رأسها ، لم تعرف متى بدأت، فهى ليست من الذين يحفظون التواريخ ، أو يجيدون حساب الزمن، الزمن أحيانا يمضي بسرعة ، بسرعة شديدة ، كسرعة دوران الارض، فيبدو لها وكأنه لا يتحرك ، وأحيانا أخرى يمضى ببطء ، ببطء شديد فيهز الارض هزا كبركان ينتفخ فى باطنها •

انها فكرة بدأت منذ زمن بعيد ، لاحت لها مرة وهى جالسة فى حصة الكيمياء فى المدرسة الثانوية ، لم تكن واضحة كل هذا الوضوح ، وانما كانت تتراءى لها من خلال بخار كالضباب، وكانت عيناها تتبعان باهتمام تلك الحركة الغريبة داخل أنبوبة الاختبار، وتلك الالوان التى تختفى فجأة وتظهر فجأة ، والأبخرة ذات الروائح الغريبة ، والراسب المتخلف فى القاع ، مادة جديدة هى نتاج تفاعل كيمائى لمادتين مختلفتين ، لها صفات جديدة ، ولها شكل جديد ، ولها اشعاع جديد ، وتنتهى حصة الكيمياء ، وتبقى هى فى المعمل، تمزج المواد بعضها بالبعض ، وتراقب بدهشة التفاعلات ، وتشم الغاز المنبعث من فوهة الانبوبة ثم تصرخ فى فرح : غاز جديد !.. اريكا .

وكان مساعد المعمل يندفع بجسمه الرفيع المدبب كرصاصة ويصيح بصوت عال حاد كانفجار موقد الغاز : اطلعى بره !.. ويشد من بين أصابعها أنبوبة الاختبار ويلقي مواد اكتشافها فى البالوعة وهو يلعن الزمن الذى جعله مساعد معمل فى مدرسة بنات حقيرة ، وكان المفروض أن يكون معيدا فى كلية العلوم لو انه اكمل دراسته. ونفد صبرها فى يوم وهو يلقي مواد تجربتها الفريدة فى الحوض وصرخت : ضيعت اكتشافى !.. ورأته وهو يزم عينيه الضيقتين فى نظرة ساخرة فأشاحت بوجهها بعيـدا عنه وخرجت تجرى من المعمل ، وظلت نظرته الساخرة تطاردها وتعطلها عن اكتشافها فترة طويلة ، وكان يمكن أن تصرفها نهائيا عن فكرة الاكتشاف الملحة ، لولا ان عقلها كان قد اتجه الى حصة الكيمياء ، والى مدرّسة الكيمياء.

كانت مدرّسة الكيمياء طويلة نحيلة مثلها، ولها عينان باسمتان دائما أبدا ، فيهما نظرة عميقة دسمة كلها ثقة . وكان يخيل اليها ان هذه الثقة كلها متجهة اليها هى وحدها دون بنـــات الفصل . لماذا ؟.. هذا ما لم تكن تعرفه بالضبط ، لم تكن هناك دلائل مادية

عليه ، ولكنها كانت تحسه ، وتحسه بقـــوة ، خاصة حين تقابلها صدفة فى فناء المدرسة وتنظر اليها ثم تبتسم • لم تكن تبتسم لكل البنات ، نعم لم تكن تبتسم للكل • ثم كان ذلك اليوم التاريخى ، حين جاء مفتش الكيمياء وسألت المدرسة سؤالا لم تعرفه واحدة من الفصل سوى فؤادة ، فى ذلك اليوم سمعت صوت المدرسة يقول لها أمام الفصل كله وأمام المفتش أيضا : فؤادة شىء آخر غير باقى بنات الفصل • قالت هذه الجملة بنصها لا تزيد ولا تنقص حرفا ، فهى محفورة فى مخها كما نطقتها بحروفها المتشابكة ، والمسافات التى تفصل الكلمة عن الكلمة ، ونقـــط الحروف وفواصلها ، وانحفار كلمتى « شىء آخر » بدرجة أشد ، وامتداد الشرطة فوق الألف فى كلمة آخر ، تماما وبالضبط ، وفقا للدرجة التى ضغطت بها المدرسة على كل حرف وزمن كل سكتة بين كلمة وكلمة •

نعم ، أصبحت فؤادة تحب الكيمياء ، لم يكن حبا عاديا كحبها للجغرافيا والهندسة والجبر ، ولكنه كان حبا غير عادى • كانت تجلس فى حصة الكيمياء فتصيب عقلها انتفاضة غريبة كالمغنطة ، ويصبح كل شىء من حولها قابلا للالتصاق بمخها ، صوت المدرسة، كلماتها ، لفتاتها ، جزئيات المواد المسحوقة التى قـــد تتطاير فى الهواء ، القطع المعدنية التى قد تتفرق فوق المنضدة ، ذرات الابخرة والغـــازات التى قد تطير فى الجو ، كل ذرة ، كل اهتزازة ، كل ذبذبة ، كل حركة وكل شىء ، يلتقطه عقلها ، كما يلتقط المغناطيس ذرات المعادن من فوق الخشب •

وكان طبيعيا بعد كل هذا أن يصبح عقلهـــا كيمائيا ، وتتخذ الاشياء من حولها أشكالا وأوصافا كيمائية ، لم يكن غريبا عليها أن نحس يوما ان مدرسة التاريخ قد صنعت من النحاس الاحمر ، وان مدرسة الرسم صنعت من الجير المطفى وان النـــاظرة صنعت من

المنجنيز ، وان غاز كبرتيد الايدروجين ينبعث من فم مدرّس العربى، وان صوت مدرّسة الصحة والاشياء كصوت احتكاك قطع الصفيح ٠

أصبح للمدرّسين والمدرّسات جميعا صفات معدنية الا شخصا واحدا ، كان هو مدرسة الكيمياء ٠ كان صوتها وعيناها ، وشعرها، وكتفاها ، وذراعاها وساقاها وكل شيء فيها أعضاء انسانية حية متحركة تنبض كشرايين القلب ٠ كانت انسانا حيا من لحم ودم لا يمكن أن يمتّ الى المعادن بصلة ٠

لكن صوتها كان أبرز ما فيها ، كانت له نكهة حلوة كنكهة برتقالة فوق شجرة ، أو زهرة ياسمين صغيرة السن مغلقة لم تفتح ولم تلمسها اصبع ٠ وكانت فؤادة تجلس فى حصة الكيمياء وتفتح للصوت الحلو عينيها وأذنيها وأنفها ومسام جسمها وتدخل الكلمات من هذه الفتحات جميعاً كهواء نقى دافىء ٠

وفى يوم حمل اليها الصوت قصة اكتشاف الراديوم ، كان قد حمل اليها من قبل أسماء رجال كثيرين اكتشفوا أشياء وكانت تقرض أظافرها وهى تسمع وتقول لنفسها لو كنت رجلا لاستطعت مثلهم ، وتحس بطريقة خفية ان هؤلاء المخترعين لا يزيدون عنها قدرة على الاكتشاف ولكنهم رجال ٠ نعم ، الرجل قد يفعل شيئا لا تفعله المرأة لمجرد أنه رجل ٠ انه ليس أكثر قدرة ، ولكنه ذكر ٠ وكأن الذكورة فى حد ذاتها شرط من شروط الاكتشاف ٠

ولكن ، ها هى امرأة تكتشف شيئا ، امرأة مثلها وليست ذكرا ٠ وبدأ الاحساس الخفي بقدرتها على الاكتشاف يقل اختفاء ، وأصبحت على استعداد لأن تتأكد أن هناك شيئا ما حولها ينتظرها لترفع عنه الحجاب وتكتشفه ، شيء موجود كالصوت والضوء والغازات والبخار واشعاعات اليورانيوم ، نعم ، شيء موجود لكن أحدا غيرها لا يحس وجوده ٠



وجدت فؤادة جسمها ممدداً فوق سريرها وعيناها تحملقان فى السقف ، ليس فى السقف كله ، وانمـــا فى دائرة صغيرة مشرشرة سقط الطلاء الابيض من فوقها فأصبحت بلون الاسمنت • كانت تحس ألما فى قدميها من كثرة ما تجولت فى الشوارع المتفرعة من ميدان التحرير • لم تكن تعرف تماما لماذا تتجول ، لكنها كانت كأنما تبحث عن شىء • ربما كانت تبحث عن فريد فيمن يقابلها من الناس ، لانها كانت تحملق فى وجوه الرجال ، وتفحص الرءوس التى تمر من وراء زجاج عربة أو تاكسى • ربما كانت تبحث عن شــقة خالية ، لانها كانت تتوقف هنا وهناك أمام العمارات الجديدة وترمق البواب بنظرة طويلة حائرة •

ولكنها الآن تحملق فى رقعة السقف المشرشرة بغير تفكير فى شىء محدد • وسمعت صوت قدمي أمها تزحفان فى اتجاه حجرتها فشدت اللحاف بسرعة فوق جسمها وأغمضت عينيها متظاهرة بالنوم العميق • وسمعت صوت انفاس أمها اللاهثة وعرفت انها واقفة على عتبة الباب تتأملها وهى نائمة ، وحرصت فؤادة على أن تبقى بغير حركة وتركت صدرها يعلو ويهبط فى تنفس عميق منتظم • ثـم سمعت صوت القدمين تزحفان بعيدا عن حجرتها ، وكان يمكن أن تفتح عينيها وتعود تحملق فى السقف ، لكنها شعرت براحة وهى مغمضة العينين ، وفكرت فى أن تنـــام ، لكنها قفزت من السرير بسرعة ، فقد خطرت لها فكرة ، وأدخلت نفسها فى المعطف الكبير واتجهت الى باب حجرتها ، لكنها توقفت لحظة كأنما تذكرت شيئا، وسارت الى التليفون وأدارت القرص الخمس الدورات ، وجاءها الجرس عاليا حادا لا ينقطع ، فوضعت السماعة وخرجت من البيت مسرعة•

كانت تسير بسرعة ، توجه قدميها من هذا الشارع الى ذاك ، تقفز فى أتوبيس تعرف رقمه ثم تنزل فى محطة تعرفها كل المعرفة، تنحرف الى يمينها فى شارع جانبى صغير تعرف أن فى نهايته بيتا أبيض ، من ثلاثة أدوار ، له باب صغير خشبى •

ورأت البواب الأسمر جالسا على دكته فيمدخل السلم، وكانت على وشك أن تسأله عن فريد لكنها تجاهلت نظرته الفاحصة المستطلعة الخاصة بكل البوابين ، انه يعرفها ، وقد رآها مرات ومرات تصعد الى شقة فريد ، لكنه كان دائما وفي كل مرة يصوب اليها النظرة نفسها الفاحصة المستطلعة ، وكأنه لا يعترف بكل تلك العلاقة بينها وبين فريد • وصعدت السلم في نَفَس واحد ، ثم وقفت تلهث أمام الباب الخشبي ذى اللون البنى القاتم ، ورأت نافذة المطبخ المطلة على السلم مفتوحة ، ان (فريد) موجود ، لم تحدث له حادثة كما تصورت ، ولم تخطفه السماء ، ودق قلبها بعنف وفكرت فى أن تعود بسرعة قبل أن يراها • لقد أخلف الموعد عن عمد لا عن عجز ، ولم يطلبها فى التليفون بعد كل ذلك ليشرح السبب • وكان يمكن أن تستدير وتعود لكنها لم تر نورا من خلال زجاج الشراعة• كانت الشقة مظلمة تماما • ربما يكون فى حجرة النوم يقرأ ، ونور حجرة النوم لا يصل الى شراعة الباب •

وضغطت بأصبعها على الجرس ، وسمعت صوت الجرس الحاد وهو يرن فى البيت ، وظلت ضاغطة باصبعها والصوت يرن عاليا حادا فى الصالة دون أن يفتح أحد الباب • ورفعت يدها عن الجرس فانقطع الصوت ، وعادت فضغطت على الجرس ، وعاد الصوت العالى الحاد يرن فى ارجاء الصالة دون أن يفتح أحد • وألصقت أذنها بالباب لعلها تسمع صوت حركة داخل الشقة ، أو أنفاسا مكتومة ، أو أنينا • لكنها لم تسمع شيئا ، وفجأة سمعت صوت جرس التليفون ينبعث من حجرة المكتب وانتفضت الى الوراء ، فقد خيل اليها انها هى التى تطلبه من بيتها ، ولكنها تذكرت انها تقف وراء الباب ، ولا يمكن أن تكون هى التى تطلبه الآن • وظل جرس التليفون يرن بضع لحظات ثم انقطع وعادت فألصقت أذنها بالباب ولم تسمع شيئا ينم عن وجود كائن حى بالشقة ، وسمعت صوت كعب عال رفيع يهبط السلم فابتعدت عن الباب قليلا

وضغطت على الجرس مرة أخرى ، واســـتطاعت أن ترى بطرف عينها امرأة سمينة تهبط السلم ، وظلت ضـــاغطة على الجرس شاخصة الى الأمام ، حتى اختفت المـرأة فى ثنية السلم ، وانتظرت بضــع لحظات أخرى حتى انقطع صــــوت الكعب الرفيع الثقيل على السلم ، فبدأت تهبط الدرجات بخطوات بطيئة ثقيلة ٠

تركت قدميها تسيران ، والأفكار فى رأسها تدب بصوت يكاد يكون مســموعا ، فريد أخلف الموعد ولم يطلبها فى التلفون وليس فى البيت فأين يمكن أن يكون ؟ ٠٠ لا يمكن أن يكون فى القاهرة ، أو فى مدينة قريبة منهـــا ٠ لابد انه فى مكان ما بعيد ، ليس فيـــه تليفون أو مكتب بريد ، لماذا اخفى عنهـــا سر غيابه ؟ ٠٠ ألم تكن العلاقة بينهما تحتم عليه أن يقول ٠ ولكن ما العلاقة التى تحتم على الانسان أن يفعل شيئا معينا ازاء انسان آخر ٠٠ ما ذلك الذى يحتم عليه أن يفعل ؟! ٠٠ الحب ! ٠٠

وتكورت الكلمة فى فمها كلقمة غير قابلة للمضغ ، الحب ! ٠٠ ما معنى كلمة الحب ٠٠ متى سمعتها لاول مرة ؟٠٠ من فم من ؟٠٠ انها لا تذكر تماما ، فالكلمة لم تغب عن أذنها منذ وعت الحياة ، كانت تسمعها كثيرا ، ولأنها كانت تسمعها كثيرا لم تكن تعرفها ، كأعضائها الأنثوية ، تراها كثيرا ملتصقة بجسمها ، وتغسلها بالماء والصابون كل يوم دون أن تعرفها ، وكانت أمهـا هى السبب ، ربما لو ولدت بغير أم لعرفت كل شىء من تلقاء نفسها ، فقد كانت تعلم وهى صغيرة جدا انها ولدت من فتحة فى نهـاية بطن أمها ، وأنها قد تكون هى الفتحة التى تبول منها ، أو فتحة أخرى مجاورة، لكن أمها نهرتها حين أطلعتها على اكتشافها ، وقالت لها انها ولدتها من اذنها ٠ وافسدت أمهـــا بهذا التصريح أحاسيسها الطبيعية ، وعطلت ادراكها لكثير من البديهيات مدة طويلة ٠ فقد ظلت فترة من لزمن تحاول خلق علاقة ما بين سماع الاصوات والولادة ، وتشككت

أحيانا فى أن الاذن خلقت للسماع ، وانها ربما صنعت لتبول منها النساء بعد الزواج • لم تكن تدرى لماذا تربط دائمـا بين الولادة والتبول وتحس أنهما لا بد وأن يكونا قريبين • وظلت تبـحث عن موقع الفتحة التى خرجت منها الى العالم ، وظنت انها ستدرسها فى حصة التاريخ ، أو الجغرافيا ، أو الصحة والاشياء ، لكنهم درسوا لهـا كل شيء الا هذا • أخذت حصة عن الدجاج وكيـف يبيض ويفقس ، وحصة عن السمك وكيف يتناسل ، وحصة عن التماسيح والثعابين وكل الكائنات الحية ماعدا الانسان ، حتى النخل درسوا لها كيف يلقح بعضه البعض • أيمكن أن يكون النخل أكثر أهمية عندهم من أنفسهم ؟•• وقبل نهاية العام رفعت اصبعها وسألت مدرسة الصحة والاشـياء فاعتبرت سؤالهـا خروجا عن الادب ، وعاقبتها بالوقوف أمام الحائط رافعة ذراعيها • وتساءلت فؤادة وهى تحملق فى الحائط لماذا تلقح النباتات والحشرات والحيوانات بعضها البعض ويعتبرون ذلك علما من العلوم ، وفى حالة الانسان يعتبرونه شيئا فاضحا يستحق العقاب ؟

***

وجدت فؤادة نفسـها تسير فى شارع النيـل ، كان الظلام الكثيف يغطى سطح الماء ، وأنوار المصابيح المستديرة منعكسة على الجانبين ، وبدا النيل وهو يزحف فى الظلام طويلا ممشوقا كجسم امرأة لعوب متشحة بالسواد حدادا على زوج تكرهه ، وقد رشقت على جانبى ردائها الاسـود حبـات من اللؤلؤ المغشوش • وتلفتت حولها • كان كل شيء فى الظلام يبدو لعوبا مغشوشا ، حتى باب المطعم الصغير الذى انتشرت فوقه لمبات ملونة رخيصة أشاعت حوله ظلالا غريبة كالاشباح • ومرت أمام الباب دون أن تدخل • لكنها عادت الى الوراء خطوة ودخلت ، وسارت فى الممر تحت الشجر ، وانحرفت فى نهاية الممر لتلقى نظرة على المائدة ، لم تكن خالية ، كان يجلس اليها رجل وامرأة ، وكان الجرسون يضع أمامهما الاكواب

والصحون ، ويبتسم لهما الابتسامة نفسها التى كان يقدمها لها ولفريد • واستدارت بسرعة قبل أن يراها وخرجت من المطعم •

سارت فى شارع النيل مطرقة ، ما الذى أتى بها الى هنا ؟•• ألا تعلم أن هذه الامكنة متواطئة مع فريد ، تعلن غيابه وتخفيه ، يكتنفها الرياء والتناقض كأى موظف خبير • وخبطت بحذائها الارض فى غضب ، ماالذى أتى بها الى هنا ؟•• فريد هجرها واختفى فلماذا تحوم حول أمكنته ؟•• لماذا ؟•• لا بد أن تلفظه من حياتها كما لفظها من حياته • نعم ، لا بد •

واستراحت لهذا التهديد ، ورفعت عينيها لتتأمل الطريق ، لكن قلبها دق بعنف ، فقد رأت رجلا له مشية فريد مقبلا من بعيد• وأسرعت الخطى لتقترب منه ، كان يميل بكتفيه الى الامام قليلا وينقل قدميه فوق الارض ببطء يشبه الحذر ، حركات فريد نفسها، واقتربا أكثر وأكثر ، انه يحرك ذراعيه بشكل ملحوظ ، وفريد لم يكن يحرك ذراعيه بهذا الشكل الملحوظ ، ولكن ربما يكون متعجلا لبلوغ المطعم بعد كل هذا الغياب ، وأصبح على بعد خطوات منها وفتحت فمها لتهتف : فريد ، لكن نور عربة مارة أزاح الظلام عن وجه آخر غير وجه فريد • وغاص قلبها فى بطنها كقطعة من حديد وانكمشت حول نفسها داخل المعطف ، وهز الرجل رأسه الاكرت فى ايماءة لزجة ، فأشاحت بوجهها بعيدا عنه وأسرعت الخطى ، لكنه سار وراءها يهمس بكلمات مبتورة غير مفهومة وتركت شارع النيل لتدخل فى شارع جانبى ، فدخل وراءها ، وظل يطاردها من شارع الى شارع حتى وجدت نفسها أمام بيتها •

***

فتحت باب الشقة وهى تلهث ، ولم تسمع صوت أمها ، فسارت على أطراف أصابعها لتجتاز الصالة ، ورأت أمها من خلال بابها المفتوح نائمة فى سريرها على جانبها الايمن ، ورأسها الملتف

بالطرحة البيضاء مرتفعا فـــوق الوســادتين السميكتين ، وجسمها النحيل مختفيا تحت الغطاء الصوفى المزدوج ٠

دخلت فؤادة حجرتها وأغلقت الباب ، وظلت واقفة في وسط الحجرة بضع لحظات ثم بدأت تخلع ملابسها ، وارتدت قميص نومها، وخلعت الساعة ووضعتها على الرف بجوار التليفون ، ومست يدها جسم التليفون البـارد فأحست برجفة ونظرت فى الساعة ، كانت الثانية عشرة ، أيكون فريد في البيت ؟ ٠٠ أتجرب وتطلبه ؟ ٠٠ ولكن ، ألا يجب أن تكف عن هذه المطاردة ؟٠٠ ولكن يمكنها أن تطلب الرقم فاذا جاءها صوته يقول « ألو » قفلت السكة ٠ نعم ، هكذا لن يعرف من الذى يطلبه ٠

ووضعت أصبعها فى قرص التليفون وأدارته الخمس الدورات، وجاءها الجرس المعهود ، وقد ارتفع صوته الحاد فى سكون الليل ، وكتمت فوهة السماعة بكفها وقد ظنت ان الرنين العالى قـد يوقظ أمها من النوم ٠ وظل الجرس يهدر فى اذنها كذئب جائع يعوي ، يرتطم صداه برأسها ويرتد عنه كأنه جدار مصمت من الحجر ٠

وضعت السماعة فى مكانها فانخمد الهدير ، وألقت جسمها فوق السرير واغمضت عينيها لتنام ٠ لكنها لم تنم ٠ ظل جسمها فوق السرير ممدودا ورأسها فوق الوسادة ، وفتحت عينيها فرأت الدولاب والمرآة والشــماعة والرف والنـافذة ، والسقف الابيض بالدائرة المشرشرة التى سقط الطلاء من فوقهـــا ، واغمضت عينيها وجعلت صدرها يعلو ويهبط فى أنفاس عميقة منتظمة ، لكنها لم تنم، ظل جسمها موجودا بوزنه وكثـافته فوق السرير ٠ وانقلبت فوق بطنها ودفنت وجهها فى الوسادة وتظـاهرت بأنها قـــد غابت عن الوعى ، لكن وعيها ظل موجودا ، وجسمها ظل ممـدودا تحت الغطاء الصوفى الخشن ، وانقلبت مرة أخرى فوق جنبها الايسر وفتحت عينيها فلم تر الا الظلام الكثيف ، وخيل اليها انها لازالت مغمضة

العينين ، أو انها فقدت البصر ، لكن خطا رفيعا من الضوء ما لبث أن ظهر فوق الحائط • وضغطت برأسها على الوسادة وشدت الغطاء لتغطى عينها • لكنها لم تنم • ظل رأسها بثقله المعهود فوق الوسادة، وطنين خافت بدأ يرن ، بدأ خافتا جدا ثم أصبح يعلو شيئا فشيئا حتى أصبح أزيزا حادا متصلا كرنين جرس لا ينقطع • وخيل اليها ان سماعة التلفون ملتصقة بأذنها فمدت يدها تحت رأسها فلم تجد الا الوسادة • وانقطع الطنين حين رفعت أذنها عن الوسادة ثم عاد يطن مرة أخرى • وكتمت أنفاسها لحظة فوضح لها مصدر الصوت، كان هو تلك الضربات المتتـــابعة المألوفة لقلبها • ولكنها لم تكن مسموعة فى أية ليلة سابقة بمثل هذه القوة كمطرقة ، وبمثل هذا التتابع والاستمرار •• كانت فى أى ليلة سابقة تضع رأسها فوق الوسادة ولا تسمع شـــيئا ، وما هى الا لحظات حتى تنام • كيف كانت تنام ؟•• حاولت أن تعرف كيف كانت تنام كل ليلة • لكنها اكتشفت فجأة أنها لا تعرف تماما كيف كانت تنام • كان جسمها يثقل وكأنه يسقط فى بئر ثم تفقد الوعى • وتذكرت أنها حاولت مرة أو ربما مرتين أن تعرف كيف تفقد الوعى فى النوم ، ففتحت عينيها قبل أن يتلاشى وجودها وتشبثت بقوة بآخر لحظة فى وعيها لتعرف ماذا يحدث لها ، لكن النوم كان يغلبها دائما قبل أن تعرف•

انها لم تعرف شيئا ، انها لا تعرف أبسط الاشياء ، لا تعرف البديهيات ولا تتعلم من التكرار ، كم ليلة نامتها فى كل عمرها ؟•• عمرها الآن ثلاثون عاما ، وكل عام ثلاثمائة وخمسة وستون يوما ، لقد نامت عشرة آلاف وتسعمائة وخمسين ليلة دون أن تعرف كيف تنام •

وضغطت برأسها فوق الوسادة ، ودوى الطنين فى رأسها ، رأس مصمت من الحجر ، رأس جماد لا يعرف شيئا ، لا يعرف أين اختفى فريد ، ولا يعرف لماذا دخلت كلية العلوم ، ولا يعرف لماذا

اشتغلت فى قسم الابحاث الكيميائية الحيوية ، ولا يعرف ما البحث الكيميائى الذى يجب أن يبحث ، ولا يعرف الاكتشاف القديم المزمن الذى يجب أن يكتشف ، ولا يعرف كيف كانت تنام . نعم ، رأس مصمت من الحجر جاهل لا يعرف شيئا ، وغير قادر على شىء ، سوى أن يردد ذلك الصدى الاجوف كأي حائط أو جدار .

وخيل اليها ان جدارا عاليا ثقيلا سقط فوقها ، فاندك جسمها فى بطن الارض ، وأحست بالميـــاه تحوطها من كل جانب ، كأنما تعوم في بحر ، كان البحر عميقا كبيرا ، ولم تكن تعرف السباحة، لكنها كانت تعوم بمهارة فائقة ، كأنها تطير فوق الماء ، وكان الماء دافئا لذيذا ، وأبصرت حوتا كبيرا يزحف تحت الماء ، كان يفتح فكيه الكبيرين ، وفوق كل فك أنياب طويلة مدببة ، واقترب منها الوحش فاتحا فاه كسرداب طويل مظلم وحاولت أن تجرى لكنها لم تستطع ، فصرخت من الفزع وفتحت عينيها .

***

كان نور النهار يدخل من بين شقوق الشيش الرفيعة، ورفعت رأسها من فوق الوسادة فشعرت بدوار فأعادته الى الوسادة ، ثـم مدت ذراعها وسـحبت الساعة من فوق الرف ، وما ان ألقت نظرة عليهـا حتى قفزت من السرير وارتدت ملابسها بسرعة ، وابتلعت كوب الشاى البارد الذى أعدته أمها وخرجت الى الشارع .

لفح وجهها الهواء البـارد فأحست بانتعـاش وراحت تحرك ساقيها وذراعيها فى نشاط . ولكنها أحست فجأة بألم فى معدتها، فأبطأت الخطى ، وضغطت بأصبعها على المثلث المنفرج تحت ضلوعها، كان الألم تحت اصبعها ، غائرا فى لحم بطنها ، يقرض جدار معدتها كدودة لها أسنان . انها لا تعرف ما سبب هذا الالم الغريب الذى يفاجئها كل صباح .

ووقفت على محطة الاتوبيس وجاء الاتوبيس رقـم ٦١٣ الذى يمر فى شارع الوزارة ، وقف أمامها وتلكأ لتركبه ، ولكنها لم تركب.

وقفت تحملق فيه كتمثال • وتحرك الاتوبيس فتنبهت الى انها يجب أن تركب وأسرعت تجرى وراءه لكنها لم تلحقه • وعادت لتقف فى المحطة وهى تشعر بشىء من الراحة ، انهــــا لن تذهب الى الوزارة اليوم • أجازاتها انتهت كلها ، ولكن ماالذى سيحدث لو انها لم تذهب اليوم •• هل سيتغير شىء فى العــــالم •• ان موتها كله وغيابها بلحمها ودمها عن العالم لن يحدث شيئا ، فما قيمة غيابها يوما عن الوزارة ؟••• فراغ سطر واحد من دفتر الحضور والانصراف القديم الذى بليت جلدته ••

وأشرقت الدنيا من حولها لهذا الخاطر ، وتلفتت حولها تنظر الى النــــاس باســـتخفاف وهم يهرولون لاهثين وراء الاتوبيسات ويقذفون بأنفسهم داخلها أو خارجها كالعميان • لماذا يجرى هؤلاء الجهلة ؟ •• هل يعرف أى واحد فيهم كيف نام ليلة أمس ؟ •• هل يعلم كل واحد منهم أنه لو سقط تحت العجـــــلات ومات ، أو أن الاتوبيس كله انقلب به وبكل من فيه وغرق فى النيل ، هل يعلم أن ذلك لا يعنى شيئا للعالم ؟ ••

ورأت أتوبيسا يقف أمامها ، وكان فيه بعض مقــاعد خالية ، فقفزت فيه بسرعة وجلست بجوار رجل عجوز • كان الرجل يمسك بأصابعه المرتجفة سبحة صفراء ويتمتم بصوت هامس : ياحفيظ !• يا حفيظ !•• احفظنا يا رب !•• احفظنا يا رب !•• كان يطل من خلال زجاج النــافذة ويتطلع الى الســـماء من حين الى حين بعينين متآكلتين لا رموش لهما • وتصورت فؤادة ان الرجل قــد أصيب تواً بكارثة فابتسمت له فى رقة لتواسيه ، لكنه ذعر وانكمش فى كرسيه مبتعدا عنها وألصق جسمه الناحل بالنافذة • وقالت لنفسها وهى تنظر الى الناحية الاخرى : ياللذعر الذى يملأ العالم !••

فى الناحية الاخرى كانت امرأة شابة تقف الى جوارها ، وقد

أصبح الاتوبيس مزدحما بالواقفين كالعـادة ٠كان يفوح من المرأة رائحة عطر وفوق وجهها تلك الطبقة المعهودة من البودرة ، وفوق شفتيها ذلك الطلاء الاحمر القـاني ، كانت نحيلة الجسم وقصيرة حتى ان بطنها كان يرتطم بكتف فؤادة وهى جالسة ، لكن ردفيها كانا سمينين وبارزين خلفها ٠

ونهضت فؤادة فجأة بغـير داع ، فاندفعت المرأة فى مقعدها وجلست مكانها تنفخ من الغيظ ، وشقت لنفسها طريقا بين الاجسام ثم قذفت بنفسها من الاتوبيس قبل أن يتحرك من المحطة ، وارتطمت قدماها بالارض وكادت تقـع لكنها استطاعت أن تنتصب واقفة ، ورفعت رأسها لترى أين هى ، ووجدت نفسها أمام سـور الوزارة الصدىء ٠

وكأنما سقط فوق رأسـها كوز ماء بارد فأفاقت ، وتذكرت انها لم تكن تنوى المجىء الى الوزارة ، لكن قدميها حملتاها بغير وعى فى الطريق اليومى المعتاد ، كحمار يفتحون أمامه باب الزريبة فيخرج وحده الى الحقل ، خروجا غير ارادى ، ولانه غير ارادى فهو طبيعى جدا ، كخروج طفل من بطن أمه ٠

ورفعت عينيها الى المبنى الكالح فرأته بارزا فى الفناء ومفلطحا كبطن أمهـا ، تنتشر فوق سطحه الاسمر القـاتم شقوق طولية وعرضية كتجاعيد الجلد ، وبدأت تشم الرائحة الغريبة ، كتلك التى تشمهـا فى أقسـام الولادات بالمستشفيات ، أو فى دورات المياه النتنة ، وتعثرت فى خطواتها وبدا الغثيان يشتد فقد عرفت انهـا تقترب من مكتبها ٠

***

كان مدير القسم غاضبا ، يتكلم بصوت عال تتاثر له لعابه كالشظايا الشفافة الصغيرة ، طارت واحدة منهـا واستقرت فوق خدها ، تركتها فى مكانها ولم تمسحها بمنديلها نفاقا له ٠ وسمعته

يقـــول : انصرفت من مكتبك أمس قبـــل الموعد الرسمي المحدد بثلاث ساعات ونصف !٠٠ وصفعت كلمة أمس أذنها فقالت بنصف وعي : أمس !٠٠ وانقلبت شفتا المدير الغليظتان الى الخارج وهز صلعته اللامعة وهو يصيح : نعم أمس ٠٠ هل نسيت ؟ ٠٠ وقالت كأنما تكلم نفسها : لم أنس ، ولكنى كنت أظن ان ذلك حدث ٠٠ (وابتلعت بقية الـــكلمات دون أن يسمعها أحد) منـــذ أسبوع أو أسبوعين ٠

وراح المدير يتكلم بصوت عال ، لكنها لم تـكن تسمع ، كانت تفكر باندهاش فى الطريقة التى يعيش بها الناس الزمن ، وكيف لا يتفق الاحساس بالزمن أحيانا مع عدد الساعات أو الدقائق التى مرت ، وهل يمكن ان تكون تلك الحركة الثابتة المتتابعـــة لعقربى الساعة داخل تلك الدائرة الضيقة المحدودة مقياسا حقيقيا للزمن ؟ ٠٠ فكيف يمكن اذن أن يقاس شيء غير مرئى وغير محدود بشيء مرئى محدود ؟ ٠٠ وكيف نقيس شيئا لا نراه ولا نحسه ولا نلمسه ولا نذوقه ولا نشمه ولا نسمعه ؟٠٠ كيف يمكن أن نقيس شـــيئا غـير موجود بشيء موجود ؟

وخطرت ببالها فكرة ظنت أنها لم تخطر ببال أحد ، وأحست بفرحة سرية أخفت معالمها عن مدير القسم ، ولم تعرف لماذا أو كيف فتحت فمها ، فجأة وقالت لمدير القسم بصوت مسموع : اننى أعمل فى قسم الأبحاث منذ ست سنوات ، وأعتقـد أن من حقى أن أقوم ببحث منذ اليوم ٠

وكأنما تفـوهت بلفظ جارح أو كلمة نابية فامتقعت صلعته باللون الأحمر وبدا شكله وهو جالس وراء المكتب كقرد يجلس فوق رأسه ويرفع مؤخرته فى الهواء ٠

وفلتت من بين شفتيها ابتسامة للمنظر ، فسمعتـه يقول فى غضب : لماذا تبتسمين هكذا ؟ ٠٠ وزمت شفتيها حتى لا ترد لكنها

قالت : لك ان تحاسبنى على الزمن الذى غبته ولكن ليس من حقك ان تسألنى لماذا ابتسم هكذا !

وتصورت ان غضبه سيشتد، وان صوته سيزداد ارتفاعا لكنه سكت فجأة وكأنما فوجيء بقدرتها الخارقة على الرد ٠ وشجعها صمته على ان تتظاهر بالغضب فقالت وهى ترفع صوتها بدرجة أعلى : أنا لا أقبل أن يدوس أحد مهما كان على حق من حقوقى ، فأنا اعرف كيف أدافع عنها ! ٠٠ واستحال احمرار صلعته الى لون أصفر باهت فبدت كرأس شمامة وقال بصوت مندهش : وما حقوقك التى دست عليها ٠٠٠ ، فلوحت بيدها فى الهواء وهى تصيح : لقد دست على حقين هامين من حقوقى ٠٠ الحق الاول حين سألتنى لماذا تبتسمين ؟٠٠ والحق الثانى حين أكملت السؤال قائلا: هكذا ؟ أما الحق الأول فهو حقى فى الابتسام ، وأما الحق الثانى فهو حقى المطلق فى اختيار الطريقة التى أبتسم بها ٠

واتسعت عيناه المدفونتان فى وجهه وأزاحتا عنهما بعض ما حولهما من لحم مكتنز وقال فى دهشة بالغة : ما هذا الكلام الذى تقولينه يا آنسة ؟٠٠ ولم تعرف فؤادة كيف سيطر عليها الغضب فقالت بغير ارادة : من قال لك اننى آنسة ؟ ٠٠ واتسعت عيناه أكثر وهو يقول : ألست آنسة ؟ ٠٠ وهنا خبطت فؤادة بيدها فوق المكتب وصاحت : كيف يمكن ان تسألنى هذا السؤال ؟ ٠٠ ما الذى أعطاك هذا الحق ؟ اللائحة ٠٠ ؟!

لم تدر فؤادة كيف انقلب المشهد بهذه السرعة ، فأصبحت هى الغاضبة ، وهى صاحبة الحق فى الغضب ، وأصبح مدير القسم فى حالة اقرب الى الخوف منها الى الدهشة ، وضاعت من عينيه تلك النظرة الشرسة التى يصوبها الى مرءوسته ، وحلت محلها نظرة مستأنسة بل ومتهيبة أيضا تشبه الى حد كبير تلك

النظرة التى ينظر بها الى وكيل الوزارة ورؤسائه من مديرى العموم • وسمعته يقول بصوت كان يمكن أن يكون رقيقا لو أنه مارس الكلام بصدق لعدة سنوات سابقة : يبدو انك متعبة اليوم ، فانت فى حالة غير طبيعية ، انى اعتذر لك اذا كنت قد آلمتك بكلمة • ووضع أوراقه تحت ابطه وغادر الحجرة ، وتأملت ظهره وهو يخرج من الباب ، كان مقوسا كظهر العجائز ، لكنه لم يكن تقوس الشيخوخة وانما ذلك التقوس المبكر الذى يصيب ظهور الموظفين من كثرة الانحناء والانثناء •

خرجت فؤادة فى ذلك اليوم من الوزارة ، وما ان ابتعدت عن السور الحديدى الصدىء حتى قالت لنفسها : لن أعود أبدا الى هذا القبر الآسن ، ولم تعلق أهمية كبيرة لهذه الجملة ، فقد كانت تقولها لنفسها كل يوم منذ ست سنوات ، وسارت الى محطة الأتوبيس لتعود الى بيتها ، لكنها بلغت المحطة ولم تتوقف ، ظلت قدماها تسيران فى الشارع • لم تكن تعرف الى اين هى ذاهبة لكنها ظلت تسير بغير هدف ، ونظرت الى الناس وهم يسيرون متجهين بسرعة وباصرار سابق نحو هدف محدد يعرفونه ، وتعجبت بينها وبين نفسها كيف استطاعوا أن يحققوا هذه المعجزة وبهذه البساطة الشديدة التى يحركون بها سيقانهم • ودارت حول نفسها دورة كاملة لا تعرف أى اتجاه تسلك ،وعرفت انها وحدها داخل دائرة مغلقة ، وان احدا لا يدور معها ،لا أحد معها ، لا أحد على الاطلاق •

ورفعت رأسها الى فوق وهى تتنهد فرأت العمارات العالية وقد رشقت فوق جدرانها اللافتات ، وتذكرت فجأة انها اتخذت بينها وبين نفسها قرارا وهى جالسة الى مكتبها فى ذلك الصباح ، قرارا نهائيا غير قابل للجدل • نعم لقد قررت أن تؤجر شقة صغيرة وتصنع منها معملها الكيماوى • وشدت قامتها وخبطت الأرض بقدمها

فى قوة • نعم ، هذا هو قرارها وهذا هو تصـــميمها ، وهى لن تتخلى عن قرارها أو تصميمها •

ووجدت نفسها فى شارع قصر النيل ، فسارت بخطوات بطيئة تتطلع بعينين ثابتتين الى العمارات • وتتوقف بين عمــــارة وأخرى وتسأل البوابين عن شقة خالية • ووصلت الى نهاية الشارع من ناحية الأوبرا فاجتازته الى الرصيف المقابل ثم عادت أدراجها تفحص العمارات على الجانب الآخر للشارع •

وبينما كانت تسأل أحد البوابين نظر اليها الرجـل بوجهـــه الأسود وعينيه الحمراوين نظرة فاحصة ثم سألها : هل معك ألف جنيه ؟•• وقالت : لمــاذا ؟•• فقال : هناك شـــقة ســـتخلو أول الشهر ، لكن صاحبها يريد أن يبيع أثاثها لمن يؤجرها • وقالت : وهل الأثاث فى الشقة ؟ •• قال : نعم • قالت : أيمكن أن اراه ؟ •• قال : نعم •

وسار البواب الى مدخل العمارة فسارت وراءه ، واتجه الى المصعد ، وضغط على الرقم ١٢ باصبع رفيعة طويلة فحمية اللون لها ظفر ابيض مدبب بدا وكأنه قلم رصاص أسود له غطاء أبيض• وسألته بينما هما يصعدان : وكم حجرات الشقة ؟•• قال : اثنتان• وقالت : والايجار ؟ •• قال :ستة جنيهات فى الشهر ، ايجار قديم• قالت : ومن هو صاحب الشقة ؟ •• قال : رجل أعمال كبير • قالت : هل كان يسكن فيها ؟ •• قال : لا ، كانت مكتبا لاعماله •

وقف المصعد فى الدور الثاني عشر ، واتجه البواب الى باب كبير بنّي اللون تعلوه رقعة نحاسية صغيرة عليها رقم ١٢٩ وفتح الباب ودخل فدخلت وراءه الى صالة صغيرة بها كنبة عريضـــــة تهدلت بطنها وكادت تسقط فوق الأرض ، وكرسيان كبيران قديمان ، ومنضدة خشبية كالحة اللون ، ثم دخلت الى الحجرة الأولى فرأت

سريرا عريضا من الصاج الأزرق وكرسيا كبيرا وشماعة ، ودخلت الى الحجرة الثانية وكانت تظن ان بها المكتب ولكنها رأت سريرا آخر ودولابا ومرآة• واستدارت الىالبواب قائلة : وأين هو المكتب ؟• وانقلبت شفتا البواب الزرقاوان فتعرّى بطنهما الأحمر النـــدي وقال بصوت غليظ : لا أعلم ، أنا بواب العمارة فقط ! •• ، وعادت فؤادة تتجول في الشقة ، وتنظر من النوافذ ، كانت الشقة تطل من ارتفاعها الشاهق على قلب مدينة القاهرة ، وتكشف الشوارع الرئيسية والميادين ، والكبارى وافرع النيل • لم تكن فؤادة قد صعدت الى هذا الارتفاع من قبل ، فبدت لها مدينة القاهرة أصغر بكثير مما كانت تظن ، وبدا لهـا الزحام الذى كان يبتلعهـا ، والأتوبيسات الكبيرة التى كان يمكن أن تسـحقها ، والشوارع الكبيرة الطويلة المتشابكة التى كان يمكن أن تتوه فيها ، كل ذلك بدا تحت عينيها ككتل صغيرة تزحف كقطع الشطرنج •

وأحست بلذة غريبة ازاء هذا التصغير الواقعى لكل شيء فى الحياة ماعدا نفسـها ، فقد كانت هي هي ، بحجمها المألوف ، ووزنها العادي تقف فى النافذة ، بل لعلها زادت حجمـا ووزنا بالنسبة لما تراه تحتها •

وتنبهت علىصوت البواب يقول : هل أعجبتك الشقة ياهانم ؟• واستدارت اليـه وهى تقول كالحالمـة : نعم ، ولـكن عينيهـا اصطدمتا بالسرير الصاج فقالت : ولكن •• ألا يمـكن تخفيض الألف جنيه •• ان هذا الأثاث لا يساوى أكثر من •• وسكتت ، وهمس البواب فى اذنها : انه لا يستحق شيئا ، ولكن الشقة •• هذه الشقة الآن لا تؤجر بأقل من ثلاثين أو أربعين جنيهـا فى الشهر • وقالت : هذا صحيح ، ولكن لو بعت نفسى فى السـوق الآن فلن أحصل على ألف جنيه • وابتسم الوجه الأسود كاشفا عن أسنانه ناصعة البياض وقال : أنت تساوي ثقلك ذهبا • وانشرح

صدر فؤادة للمجاملة العابرة انشراحا كبيرا خيل اليها انها لم تحسه منذ زمن بعيد وابتسمت ابتسامة عريضة وهي تقول : أشكرك يا عم ·· وقال البواب : عثمان، فقالت : أشكرك ياعم عثمان ·

وهبطا في المصعد الى الدور الأرضي ، وصافحت البواب وشكرته وتركته لتواصل سيرها ، لكنه قال : لماذا تؤجرين شقة يا هانم ؟ ·· للسكن ؟ وقالت فؤادة : لا ، ستكون معملا كيماويا · وصاح بغير فهم : كيماويا ؟ ·· وقالت : نعم كيماويا · وكشف مرة أخرى عن أسنانه البيضاء وقال كأنه فهم : نعم نعم كيماويا ، انها شقة مناسبة جدا لأن تكون كذلك · وقالت فؤادة : انها مناسبة جدا ولكن ·· وقرب البواب فمه الأزرق من أذنها وقال : يمكنك التفاهم مع صاحب الشقة ، قد يخفض المبلغ الى ستمائة جنيه ، أنت أول من أقول له هذا السر ، ولكنك انسانة طيبة القلب وتستحقين كل خير · وقالت فؤادة لنفسها ستمائة جنيه ؟ ··· ايمكن أن تعطيها أمها ستمائة جنيه ؟ ·· ونظرت الى البواب بعينين حائرتين وقال الرجل : يمكنني أن أحدد لك موعدا مع صاحب الشقة اذا وافقت على ذلك · وفتحت فمها لتقول لا ، لكنها قالت نعم · وقال : غدا الجمعة ، وهو يأتي هنا كل يوم جمعة ليتفقد أحوال العمارة ، وابتسم في زهو : انه صاحب العمارة أيضا · وقالت : ومتى يكون هنا ؟ ·· في أي ساعة ؟ وقال : في العاشرة صباحا تقريبا · وقالت : سآتي في العاشرة والنصف ، ولكن عليك أن تخبره انني لا أملك ستمائة جنيه الآن · وقال البواب : يمكنك أن تدفعي ما معك وتقسّطي الباقي · يمكنني أن أتوسط لك عنده في هذه النقطة وهو لن يتشدد ، وقرّب فمه الازرق مرة أخرى وقال : فالشقة خالية منذ سبعة شهور ولكن لا تظهري له انك تعرفين هذه الحقيقة لأنه سيعرف انني أنا الذي قلت لك ، انت أول شخص أقول له هذا السر ، ولكنك انسانة طيبة القلب

وتستحقين كل خير • وابتسمت فؤادة وهي تقول : أشكرك يا عم عثمان • سوف أكافئك على هذه الخدمة الكبيرة التى اديتها لى • وكشف الوجه الأسود عن الأسنان الناصعة البياض فى ابتسامة عريضة مفعمة بالأمل •

وصلت فؤادة بيتها قبل حلول الظلام ، ورأت أمها جالسة في الصالة متدثرة بالصوف ومعها أم علي الطباخة • وما ان وضعت المفتاح في الباب حتى هبّت أم علي وصاحت من الفرح : الحمد لله انها وصلت ، ولفّت جسمها اليابس الصغير فى ملاءتها السوداء ووضعت صرتها الصغيرة تحت ابطها استعدادا للعودة الى بيتها • ورأت فؤادة عينى أمها الواسعتين وقد طفا على سطحهما الابيض اصفرار باهت كالغشاء الرقيق ، واحمرت ارنبة أنفها كأنها مصابة بزكام • وسمعت صوتها الضعيف يقول : قلقت عليك طول النهار• لماذا لم تتكلمي فى التليفون ؟ •• وقالت فؤادة وهى تجلس الى المائدة لتأكل : لم يكن بجوارى تليفون ياماما • وقالت الأم : لماذا •• أين كنت كل هذا الوقت ؟•• ودست فى فمها ملعقة أرز بالصلصة وقالت : كنت ألفّ فى الشوارع • وردّت الأم فى دهشة: تلفّين فى الشوارع •• لماذا ؟ وانتظرت حتى ابتلعت ما فى فمها ثم قالت : كنت أبحث عن الاختراع العظيم • وارتسمت على وجه أمها دهشة أضافت اليه بعض التجاعيد الجديدة وقالت : ماذا تقولين ؟ •• وابتسمت فؤادة وهى تعض على قطعة لحم محمرّة : هل نسيت بسرعة دعوتك القديمة ؟•• ورفعت فؤادة كفيها الى فوق مقلدة حركة أمها حين تتأهب للدعاء وهتفت بلهجتها نفسها : ربنا يفتح عليك يا فؤادة يا بنتي لتخترعى اختراعا عظيما فى الكيمياء •• وانفرجت شفتا امها اليابستان عن ابتسامة ضيقة وقالت : ياما دعوت لك يا ابنتى • واحست فؤادة بانتعاش ومرح وهى تلتهم قطعة من الطماطم المتبلة بالفلفل الأخضر وقالت فى سرور : يخيل

الي أن دعوتك قد وجدت باب السماء مفتوحا • وتهلل • وجه أمها فزادت كراميشه وقالت : ماذا ؟ •• هل أعطوك علاوة في الوزارة•• أو ترقية !•• الوزارة ! ! لمــاذا نطقت بهذا اللفظ ؟•• أما كان في امكانها أن تنتظر حتى انتهي من طعامي ؟ •• وأحست فؤادة بلذة الأكل وكأنما تجهض ، وبدأ ذلك الألم المزمن يزحف الى معدتها ، يصاحبه ذلك الغثيان الجاف بغير قيء • ونهضت لتغســل يديهــا دون أن ترد ، لكن صوت أمها انبعث مرة أخرى قائلا : أفرحي قلبي يا بنتي • هل حصلت على درجة ؟ •• وخرجت فؤادة من الحمّـام ووقفت في وسط الصالة أمام أمها وقالت : ما قيمة درجة أو علاوة يا أمي ؟ •• بل ما قيمة الوزارة ؟ أنت تتصورين أن الوزارة شيء ضخم عظيم ، انها ليست الا مبنى قديما آيلا للســقوط ، وانت تتصورين انني حين أخرج كل يوم في الصباح الباكر وأعود بعـد الظهر أكون قــد أديت عملا ما في الوزارة ، ولكنك لا تصدقين اذا قلت لك انني لا أعمل شيئا ، لا أعمل شيئا على الاطلاق ، الا أن أكتب اسمي في دفتر الحضور والانصراف ! •• ونظرت اليها أمها بعينيها الصفراوين الواسعتين وقالت بصوت واه : ولــكن ، لماذا لا تشتغلين يا ابنتي •• انهم لن يرضــوا عنك بسبب هذا ، ولن تحصــلي على ترقيات •• وابتلعت فؤادة ريقها وقالت : ترقيات •• ! الترقيات تعطى حسب شهادة الميلاد ، وحسب مرونة عضلات الظهر ! •• وقالت أمها في دهشة : مرونة عضلات الظهر ! • هل أنت في قسم الأبحــاث الكيميائية أم الألعــاب الرياضية ؟ •• وضحكت فؤادة ضحكة قصيرة سريعة ثم وضعت أصبعها على فم أمها قائلة : لا تقولي الأبحاث ، انها من الألفاظ الجارحة !•• وقالت الأم : ماذا ؟•• وقالت فؤادة لا شيء ، انني أضحك معك • المسألة كلها هي انني سأنشيء معملا كيمياويا •

وجلست فؤادة الى جوار امها ، وراحت تشرح لها بحماس

ما معنى أن يكون لها معمل خاص ، وانها ستجري فيه تحليلات للناس وتحصل على أموال كثيرة ، وانها الى جانب هذا ستجري فيه أبحاثا كيمائية وقد تكتشف شيئا خطيرا يغيّر العالم • كان لابد من هذه المقدمة الحماسية حتى تصل فؤادة الى تلك النقطة المادية السخيفة ، حين تطلب من أمها مالا • وكانت أمها تنصت باهتمام وسرور لكل ما يمكن أن تقوله فؤادة الاتلك التلميحات الخفية لمطالب مادية • وفهمت الأم المدربة أن تلك الرنة المجلوة فى صوت فؤادة انما تعنى فى النهاية مطلبا •

وقالت الأم فى النها ية : هذا شىء جميل جدا • ليس لى الا أن أدعو لك بالتوفيق يا ابنتى ، وقالت فؤادة : ولكن الدعوات وحدها لا تكفي يا أمي ، لا يمكن أن أنشىء معملا كيماويا بالدعوات لا بد من مال لشراء الأدوات والأجهزة •

وقالت الأم وهى تنفض يديها المعروقتين : مال ؟ •• من أين المال ؟ •• أنت تعرفين « البير وغطاه ».وقالت فؤادة : ولكنك قلت مرة ان عندك ما يقرب من الف جنيه . وقالت الأم وقد اختفت النبرة الضعيفة من صوتها : ألف •• ! لم يعد هناك ألف ١٠٠٠! ألم نسحب منها جزءا لتبييض الشقة وتجديد العفش •• هل نسيت ؟ •• وقالت فؤادة • وهل انفقت الألف جنيه كلها ؟ •• وقالت الأم وهى تمصمص شفتيها اليابستين : لم يبق الا ثمن كفنى• وقالت فؤادة : بعيد عنك الشر يا ماما • وقالت الأم بصوتها الواهى وقد تضعضعت نظراتها مرة أخرى : ليس بعيدا يا ابنتى ، من يدرى ماذا يحدث غدا ، لقد حلمت حلما سيئا منذ أيام • وقالت فؤادة وهى تنهض : لا •• لا •• لا تقولى هذا الكلام ، ستعيشين مائة عام ، وانت الآن فى الخامسة والستين ، أى لا زال أمامك خمسة وثلاثون عاما من الحياة ، ليست الحياة العادية ، وانما الحياة

السعيدة الرغدة ، لأن ابنتك فؤادة ، سوف تحقق فى هذه السنوات المعجزات ! وتنهال الأموال عليك من السماء !

وقالت الأم وهى تبتلع ريقها الجاف : لماذا لم تدخرى بعض المال ؟ •• لقد ادخرت الالف جنيه من معاش أبيك الذى يقل عن مرتبك بثلاثة جنيهات. أين تبددين أموالك ؟ •• وقالت فؤادة : أموالي •• ان مرتبى لا يشترى لى فستانا محترما !

وسادت لحظة صمت طويلة ، وسارت فؤادة الى باب حجرتها، ووقفت على عتبة الباب لحظة تنظر الى أمها المتكومة تحت الأغطية الصوفية فوق الكنبة ، الكفن أم الاختراع العظيم ؟ •• أيهما أكثر أهمية أو فائدة ؟ •• وفتحت فمها لتقول فى محاولة أخيرة : كأنك لن تعطينى شيئا • وقالت الأم دون أن ترفع عينيها اليها : هل ترضين لى أن أدفن بغير كفن ؟ ••

ودخلت فؤادة حجرتها وألقت نفسها فوق السرير • لم يعد هناك أمل فى شىء ، لم يعد هناك شىء ، كل شىء اختفى ، كل شىء ضاع ، المعمل الكيماوى ، والبحث وفريد ، والاكتشاف الكيماوى ، لم يبق شىء ، لم يبق شىء الا جسمها الكئيب الثقيل ، الذى يأكل ويشرب ويبول وينام ويعرق • ما فائدة هذا الجسم ؟ •• لماذا يبقى وحده دون كل الأشياء ؟ •• لماذا هو وحده ؟ •• داخل تلك الدائرة المغلقة ؟

كانت تحملق فى الجدار الأبيض المجاور للدولاب ، وكان هناك شىء أسود فوق اللون الأبيض ، شىء على شكل مربع ، على شكل اطار صورة • كانت الصورة لفتاة بملابس العرس البيضاء الطويلة ، تمسك بأصابعها الملفوفة كأصابع الموز باقة ورد ، والى جوارها شاب طويل الوجه له شارب أسود • كانت فؤادة منذ وعت الحياة ترى هذه الصورة معلقة فى الصالة ، ولم يحدث مرة أن

وقفت امامها ودققت النظر ، كانت أمها تقول إنها صورة زفافها لكنها كانت تراها من بعيد وكأنها صورة فتاة أخرى غير أمها ٠

وحدث مرة أن وقفت فؤادة أمام الصورة وتأملتها ٠ كان ذلك بعد موت أبيها بسنة أو أكثر ، وكانت مدرّسة التاريخ قد ضربتها بالمسطرة عشرين مرة فوق أصابعها ، مرتين فوق كل أصبع ، وعادت فؤادة الى البيت تشكو لأمها ، فصفعتها أمها على وجهها بسبب اهمالها التاريخ ، ثم ذهبت الى الخياطة وتركتها بالبيت وحدها ٠ لم تدر فؤادة يومها لماذا وقفت أمام الصورة ، لكنها كانت تتجول فى البيت وتتأمل الجدران كالسجن ٠ ولأول مرة ترى الصورة ، لأول مرة ترى وجه أبيها ، وتأملت عينيه طويلا وخيل اليها أنهما تشبهان عينيها ٠ وكأنما اخترق قلبها سكين حاد ، فقد اكتشفت فجأة انها تحب أباها ، وانها تريده،تريد أن ينظر اليها بهاتين العينين وان يطوقها بذراعيه ٠ ودفنت رأسها فى وسادة الكنبة وأخذت تجهش بالبكاء ٠ كانت تبكى لأن أباها مات دون أن تبكى ، وتمنت فى تلك اللحظة أن يحيا أبوها ثم يموت مرة أخرى لتبكي ، حتى يستريح ضميرها ٠ ومسحت عينيها فى ملاءة الكنبة ونهضت وخلعت الصورة من مسمارها ومسحت التراب من فوق زجاجها ، ونظرت اليها مرة أخرى ٠ وكأنما كان التراب يحجب عنها عينى أمها ، لأنهما ظهرتا أمامها واضحتين واسعتين فيهما نظرة غريبة لم ترها من قبل ، نظرة شرسة ظالمة ٠ ورفعت فؤادة الصورة لتعلقها فى مسمارها لكنها أخذتها معهاالى حجرتها ودقت لها مسمارا بجوار الدولاب وعلقتها ، ونسيتها فى ذلك المكان ولا تذكر انها نظرت اليها مرة أخرى ٠

أغمضت فؤادة عينيها لتنام ، لكنها أحست بشىء ما بين جفنيها ، له ملمس الدموع ، لكنه يحرق ، ودعكت عينيها وهى تمسحها بطرف ملاءة السرير وضغطت رأسها فوق الوسادة وشدت

الغطاء فوقها لتنام ، لكن الطنين بدأ يرن في أذنيها كرنين جرس خافت لا ينقطع • وتذكرت شيئا فنهضت بسرعة وأدارت قرص التليفون الخمس الدورات • وجاءها الجرس العالي الحاد • الليلة الثالثة وفريد غائب عن البيت • أين يمكن أن يكون ؟ •• عند أحد أقاربه ؟•• ولكنها لا تعرف أحدا من أقاربه• عند أحد أصدقائه ؟•• وهي لا تعرف أيضا أحدا من أصدقائه • انها لا تعرف الا هو ، وهي لا تعرفه تلك المعرفة التقليدية ، لا تعرف ماذا كان أبوه ، وكم قيراطا يمكن أن يرثه عنه ، وكم يقبض كل شهر ، وكادر وظيفته والدرجة والاختصاصات ، وبيان الجزاءات والاستقطاعات ورقم البطاقة وتاريخ الميلاد • انها لا تعرف شيئا من هذه المعلومات ، ولكنها تعرفه هو بلحمه ودمه • تعرف شكل عينيه وذلك الشيء الفريد يطل منهما ككائن حي ، تعرف شكل أصابعه ، تعرف طريقته حين يفتح شفتيه ليبتسم ، تعرف صوته من بين الأصوات ، وتعرف مشيته من بين المئات ، تعرف طعم قبلته في فمها ، وملمس يده على جسمها ، وتعرف رائحته • نعم تعرف رائحته جيدا ، تستطيع أن تميزها فهي رائحة دافئة خاصة غير عادية ، تسبقه بقليل قبل أن يأتي ، وتبقى معها بعد أن يمضي ، وتظل عالقة بملابسها وشعرها وثنيات أصابعها ، فكأنما هي شخص آخر يلازمها ، أو كأنما تنبعث منها هي لا منه هو •

ولكن ، أهذه هي المعلومات التي تعرفها عن فريد ؟ شكل الاصابع حركة الشفتين ، طريقة المشية والرائحة أيضا ؟! •• أيمكن أن تتجول هنا وهناك تتشمم رائحته وتبحث عنه في كل مكان كما يفعل الكلب البوليسي ؟ •• لماذا لم تعرفه أكثر ؟ •• لماذا لم تعرف وظيفته ومكان عمله ؟ •• لماذا لم تعرف بيت أسرته واقاربه ؟ •• ولكنه لم يكن يقول لها • ولم تكن هي تسأله • ولماذا كانت تسأله ؟ •• انه لم يكن يسألها • كانت زميلته في كلية العلوم وكان زميلها • هكذا كانت بداية القصة •

وسمعت فؤادة صوتا الى جوارها ففتحت عينيها ، ورأت أمها واقفة الى جوار السرير • كانت عيناها أكثر اتســـاعا واصفرارا ووجههـا أكثر تجعــدا • وسمعت أمها تقول : كم يلزمك لانشاء المعمل ؟ •• وابتلعت فؤادة ريقها وهي تقول : كم بقي معك ؟ •• وقالت الأم : ثمانمائة جنيه وقالت فؤادة : كم يمكن أن تعطي ؟ •• وســكتت الأم لحظـة ثم قالت : مائة • وقالت فؤادة : أريد مائتين وسوف أسددها لك • ونهضت من سريرها وهي تقول : أقسم بأن أسددها لك • وقالت الام بصوت يائس : متى ؟ انك لم تسددى ديونك القديمة • ابتسمت فؤادة : وقالت : كيف أسددها ؟ انك تطالبينني بتسعة شهور الحمل وآلام الولادة ولبن الرضاعة وسهر الليالى بجوار المهد ! •• أيمكن أن أســدد كل هذا •• ! وقالت الأم : عوضى على الله فى هذا ، ولكن عليك أن تسددى المائة جنيه التى أخذتها العام الماضى • وقالت فؤادة فى شرود : العام الماضى ؟! وقالت الأم : هل نسيت ؟

تذكرت فؤادة ذلك اليوم من العام الماضى • كانت جالســة فوق السرير كما هى جالسة الآن وفجأة دق جرس التليفون فرفعت السماعة وجاءها صوت فريد • كان يتكلم بسرعة على غير عادته ، قال لها : انا اتكلم من البيت ولكن هناك مهمة عاجلة هل يمكن أن تحصلى على شىء من المال ؟ وقالت : معى الآن عشرة جنيهات • فقال بسرعة : أنا بحاجة الى مائة•قالت متى ؟•• قال : اليوم أو غدا على أكثر تقدير •

• أول مرة يطلب فريد منها شـيئا ، بل أول مرة يطلب احد منها شيئا • كانت فى ذلك اليوم مريضــة بالانفلونزا ، وكانت تحس بصداع شديد ، ولم تكن قادرة على أن تحرك جسـمها من تحت الفراش • ولكنها أحست فجأة أن قوتهاتعود ، وجلست تحملق فى الجدار وقد خيل اليها أنها قادرة على أن تهدمه لتبحث عن المائة

جنيه ، ونهضت بسرعة وارتدت ملابسها ، لم تكن تعرف من أين ستأتي بالمال ، ولكنها كانت تعرف أنها لابد أن تخرج وتبحث • وبينما هي تتجول في الشوارع كالتائهة خطرت لها أفكار كثيرة من أول الاستدانة بالربا الى السرقة والقتل ، وأخيرا تذكرت أمها ، فعادت تجري الى البيت •

لم يكن سهلا أن تحصل من أمها على المال ، لكنها حصلت عليه بعد أن روت لها كذبة كبيرة جعلتها تصدق أن حياة ابنتها معلقة بهذه الجنيهات المائة ، وكانت لحظات تاريخية ، تلك اللحظات التي بدأت حين وضعت فؤادة المال في حقيبتها وأسرعت تجرى الى بيت فريد ، كانت تلهث وتنتفض حين فتح لها الباب ، وأسرعت الى حقيبتها ففتحتها ووضعت الجنيهات المائة فوق المكتب دون أن تنطق بحرف ، ربما من شدة السعادة •

نعم ، كانت سعيدة ، ربما كانت في أسعد لحظة مرت بحياتها، فقد استطاعت أن تفعل شيئا لفريد • استطاعت أن تفعل شيئا لأحد، شيئا له فائدة ما • ونظر اليها فريد بعينيه البنيتين اللامعتين يطل منهما ذلك الشيء الغريب الذى تحبه ولا تعرفه ، وقال : أشكرك يا فؤادة وحوطها بذراعيه وكان يمكن أن يقبل شفتيها ككل مرة يلتقيان في البيت ،لكنه قبل جبهتها برقة واستدار بسرعة قائلا : يجب أن أذهب الآن •

بكت فؤادة في تلك الليلة وهي عائدة الى بيتها ، أما كان في استطاعته أن يبقى معها خمس دقائق أخرى ؟ أكان مشغولا الى ذلك الحد حتى انه لم يقبلها ؟ وما الذى يمكن أن يشغله الى هذه الدرجة ؟ •• !!





جلست على كرسى قديم فى الصالة ، وجلس صاحب العمارة على الكرسى المقابل لها ؛ وبينهما كانت المنضدة الكالحة ومن فوقها صينية صغيرة عليها فنجانان من القهوة • كان وجهه كبيرا ممتلئا باللحم ، من تلك الوجوه التى نراها لأول نظرة فنفقد الثقة فى صاحبها ، شيء ما فى حركة الشفتين أو فى حركة العينين ، أو فى شيء آخر لا تعرفه ، يوحى اليها انه يكذب ، أو أنه لا يمكن أن يصدق، ربما هى تلك الذبذبة اللاارادية المستمرة فى عينيه الجاحظتين ، أو الرعشة الخفيفة التى تصيب شفتيه حين تنفرجان لتخرج من بينهما كلماته السريعة المتآكلة • انها لا تدرى تماما •

ولكن أتصدر أحكاما على الناس من ملامحهم ؟•• هى صاحبة العقل الكيميائى ؟ أيمكن أن تحكم على الناس بأحاسيسها وانطباعاتها ؟•• لماذا لا تكف عن هذه العادة السخيفة ؟ ••

ورأت شفته العليا الرفيعة تقفز وهو يتكلم فتكشف عن أسنان صفراء كبيرة ،كان يقول : هذه الشقة ايجارها اليوم لا يقل عن ثلاثين جنيها فى الشهر •• ومدت يدها الى فنجان القهوة وهى تقول : اعرف اعرف ؛ ولكنى لا أملك الا هاتين المائتى جنيه ، وسوف أدفعها لك دون أن آخذ العفش ، فاننى لن أحتاج اليه •• وارتجت

عيناه الجاحظتان من تحت نظارته البيضاء السميكة كعينى سمكة كبيرة تمشي تحت الماء ، ورمق البواب الواقف بجوار الباب نظرة سريعة ثم قال : اذا كنت فى غير حاجة الى العفش فانى أخفض القيمة الى أربعمائة جنيه ٠

وابتلعت رشفة من القهوة المرة وقالت : قلت لك ليس معى الا مائتان ٠ وقال البواب بعد أن نظر الى سيده نظرة متواطئة : يمكنها يا سعادة البيه أن تدفع المائتين الآن وتقسط الباقى ، وانفرجت الشفتان الرفيعتان عن ابتسامة ضيقة وتذبذبت العينان الجاحظتان وهو يقول : أقبل التقسيط ولكن كم يكون كل قسط ؟٠٠

لم تكن تعرف فؤادة شيئا عن تلك المساومات ، كانت تريد الشقة ، بل أصبحت الشقة أملها الوحيد في الحياة ، قارب النجاة الوحيد من ذلك الضياع والفراغ ، والخيط الوحيد المتين الذى يقودها الى البحث الكيميائى وربما الى الاكتشاف العظيم ٠ ولكن هذا الوجه الكبير المشبع باللحم من كل زاوية ، وهاتان العينان المقعرتان تنظران اليها فى جوع ونهم وكأنها قطعة من اللحم ٠٠ ألا تكفيه مائتان من الجنيهات نظير لاشيء ؟٠٠ وكيف تقسط الباقى ؟٠٠ انها ستشترى الأدوات والأجهزة بالتقسيط ، فمن أين تدفع كل هذا ؟٠٠ ثم انها ستدفع ايجار الشقة كل شهر ، وقد تستأجر شخصا يستقبل الزبائن ويساعد فى تنظيف المعمل ٠

كانت مطرقة تفكر فى صمت ، ورفعت عينيها فجأة اليه وضبطت عينيه الزجاجتين يرمقان ساقيها بنظرة شرهة فشدت بغير ارادة فستانها ليغطى ركبتيها وقالت : لن أستطيع ان أدفع شيئا بالتقسيط ٠٠ وأمسكت حقيبتها ونهضت لتخرج ، ونهض هو الآخر وكأنه محرج وأطرق الى الأرض وتمتم فى أسف : أنا لم أخفض المبلغ عن خمسمائة جنيه لأى أحد وجاءنى أشخاص كثيرون لكنى رفضت تأجير الشقة لمدة طويلة ، انها أجمل شقة فى العمارة ٠

وقالت وهى تتجه الى الباب : انها شقة جميلة ولكننى لا استطيع دفع اكثر من مائتى جنيه • وسارت نحو المصعد ، وأحست بنظراته تلسع ظهرها ، وفتح لها باب المصعد فدخلت ودخل وراءها •• كان ضخم الجثة عريض الكتفين له بطن عال ، وساقان رفيعتان تنتهيان بحذاء صغير • وقال للبواب قبل أن يهبط المصعد : اغلق الشقة يا عثمان •

وهبط المصعد بهما ، ورأت عينيه المقعرتين ترشقان صدرها بنظرة فاحصة دقيقة كأنما هو يقيسه أو يزنه • وكتفت ذراعيها حول صدرها وتشاغلت بالنظر فى المرآة •• وكأنما فوجئت حين رأت وجهها •• منذ مدة طويلة لم تر وجهها •• انها لا تذكر انها نظرت فى المرآة فى اليومين السابقين ، منذ غياب فريد ، ربما ألقت مرة نظرة خاطفة على شعرها بعد أن مشطته ، لكنها لم تر وجهها ، وبدا لها وجهها أطول مما كان ، وعينيها أكثر اتساعا يشوب بياضها احمرار خفيف ، وأنفها هو انفها ، وفمها هو فمها بتلك الفرجة اللاارادية القبيحة ، وزمت شفتيها وابتلعت لعابا له طعم البن المر حين توقف المصعد فى الدور الأرضى ، وتنبهت الى أن صاحب العمارة كان لايزال يرمقها من تحت نظارته السميكة البيضاء • وفتحت باب المصعد وأسرعت تخرج من العمارة لكنها سمعت صوته من خلفها يقول : لو سمحت يا آنسة •• واستدارت اليه فقال : لم أعرف لماذا تريدين الشقة •• للسكن ؟• وقالت فى ضيق : لا ، سأجعلها معملا كيماويا• وانحسرت شفته العليا عن الأسنان الكبيرة الصفراء وقال : هذا شىء عظيم ، وأنت التى ستعملين فيه ؟•• قالت : نعم • وتذبذبت عيناه لحظة ثم قال : كنت أود أن أعطيك الشقة ولكن ••

وقاطعته قائلة : أنا أشكرك ولكنى كما قلت لك ليس معى الا المائتان •

وثبتت نظرته لحظة وهو يقول : سأقبل منك المائتين ، تأكدى

اننى لم أكن أقبلها أبدا من أى شخص غيرك • ونظرت اليه فى دهشة وقالت : معنى هذا انك توافق • وابتسم ابتسامته اللزجة وعيناه الجاحظتان ترتجفان من تحت زجاج النظارة كعينى ضفدعة تتلصص تحت ماء عكر وقال : من أجل خاطرك فقط • وقالت وهى تخفى سرورها : هل يمكن أن أدفع الآن ؟•• قال : اذا شئت •• وفتحت حقيبتها بسرعة وناولته المائتى جنيه وقالت : متى أكتب العقد •• قال : متى تشائين •• قالت : الآن ؟ قال : الآن •

***

خرجت فؤادة من العمارة ، وسارت فى الشارع ساهمة ، يسيطر عليها شعور غريب كذلك الذى تحسه فى الاحلام ، كان مزيجا من عدم التصديق الكامل بالحصول على الشقة وبالخوف الشديد من فقدانها ، ذلك الخوف الذى ينتاب المرء حين يحصل على شىء ثمين فيظن أنه سيفقده فى لحظة حصوله عليه •

وخيل اليها أن ما حدث لم يكن الا حلما ، ففتحت حقيبتها ورأت عقد الايجار مطويا تحت كيس النقود ، وأمسكت الورقة وفتحتها ووقعت عيناها على بعض كلمات ، طرف أول محمد الساعاتى ، وطرف ثان فؤادة خليل سالم •• وتأكد لها ان الأمر لم يكن الا حقيقة فطوت عقد الايجار وأعادته الى مكانه فى الحقيبة ، وواصلت سيرها •

شىء ما يجثم فوق قلبها ويجعله ثقيلا ، ماهذا الذى يثقل قلبها ؟ أما كان يجب أن تكون مسرورة ، ألم تحصل على الشقة ؟•• ألم تحقق الأمل ؟•• ألن تصبح صاحبة معمل كيماوى ؟•• ألن تجرى بحثها ؟ ألن تسعى الى اكتشافها ؟•• نعم ، كان يجب أن تكون سعيدة ، ولكن قلبها ثقيل ، كأنه ربط بحجر •

ولم تشعر برغبة فى العودة الى البيت ، وتركت قدماها تسيران ولمحت تليفونا من وراء باب زجاجى فدفعت الباب ودخلت ووضعت يدها فوق السماعة لترفعها لكن صوتا خشنا قال لها : ممنوع استعمال

التليفون ، وخرجت تبحث عن تليفون ،الساعة الواحدة واليوم جمعة، ربما يكون فريد قد عاد الى البيت ، ولكن قلبها يحس انها لن تجده ، سيأتيها ذلك الجرس الأخرس حادا متصلا لا ينقطع ٠٠ خير لها ألا تطلبه فى التليفون ، خير لها أن تكف عن السؤال عنه ، لقد هجرها واختفى فلماذا تثقل قلبها بالأوهام ٠٠؟

ورأت تليفونا فى كشك سجائر فتظاهرت بأنها لا تراه وسارت فى طريقها رافعة رأسها ولكنها استدارت وعادت لترفع السماعة بأصابع مرتجفة باردة ٠

نفذ الجرس الى رأسها كمسمار مدبب ، كان يؤلم أذنها لكنها كانت تبقيه وكأنما تستعذب الألم ، كأنما تعالج به ألما آخر أشد وأفدح ، كالذى يكوى جلد بطنه بسيخ محمّى ليتخلص من ألم الكبد أو الطحال ٠ وظلت السماعة الى جوار أذنها ، ملتصقة بها ، حتى سمعت البائع يقول: هناك غيرك يريد التليفون ٠٠ فوضعت السماعة وواصلت سيرها مطرقة الرأس ٠

أين اختفى ؟٠٠ لماذا لم يقل لها الحقيقة ؟٠٠ أكان كل ذلك خداعا ؟٠٠ أكانت كل أحاسيسها كذبا ؟٠٠ لماذا لا تكف عن التفكير فيه ؟٠٠ الى متى تتجول كالتائهة فى الشوارع ٠٠ ما جدوى هذه الحركة الدائرية العقيمة كدوران عقربى الساعة ٠٠ ألا يجب أن تبدأ فى شراء أدوات المعمل وأجهزته ؟٠٠

ورفعت رأسها فاصطدمت عيناها بظهر كظهر فريد ، وتصلبت واقفة فى مكانها كأنما أصيبت بمس كهربى ، لكنها أفاقت بعد لحظة حين رأت وجه الرجل من الجانب ٠٠ لم يكن فريد ٠٠ وتراخت عضلاتها كما تتراخى اثر انتهاء الصدمة الكهربية وشعرت انها لا تستطيع السير ، وان قدميها لا تقويان على حملها ٠٠ كان الى جوارها مقهى صغير تنتشر كراسيه فوق الرصيف فجلست على كرسى

منها ، وراحت تحملق بنصف وعي فيما حولها ‥ وكانت الأشياء من حولها تبدو مألوفة كأنما رأتها من قبل ، الرجل العجوز الأعرج الذى يوزع أوراق اليانصيب ، والجرسون الأسمر ذو الخط العميق فى ذقنه اثر جرح قديم ، والمنضدة الرخامية المستطيلة التى تضع يدها عليها ، والرجل القصير السمين الذى يجلس الى المنضدة المجاورة يشرب فنجان القهوة ، والخطوط الرفيعة الحمراء التى رسمت على فنجان القهوة ، بل وتلك الرعشة المستمرة فى أصابع الرجل وهو يرفع فنجان القهوة الى فمه ‥ كل هذا حدث فى مرة سابقة كما يحدث الآن ‥ انها لم تجلس فى هذه القهوة أبدا ‥ بل انها لم تأت الى هذا الشارع من قبل ، ولكن هذه الجلسة التى تجلسها ومن حولها تلك الاشياء قد حدثت مرة سابقة لا تدرى أين ‥

وتذكرت أنها قرأت مرة شيئا عن تناسخ الأرواح وقالت لنفسها فى سخرية ربما عشت هذه الحياة من قبل فى جسم آخر ٠

وخطر لها فى هذه اللحظة خاطر غريب ، فقد تصورت انها سترى فريدا مارا أمامها فى الشارع ‥ لم يكن تصورا فحسب ولكنه كان كاليقين ، بل لقد خيل اليها ان قوة ما خفية هى التى ساقتها الى هذا المقهى بالذات وفى هذا الشارع بالذات وفى هذه الدقيقة بالذات لكى ترى (فريد) ٠

ولم تكن تؤمن بالأرواح الخفية ، كان عقلها كيمائيا لا يؤمن الا بما يخضع للتحليل الكيمائى ويوضع فى انابيب الاختبار ٠ ولكن هذا الخاطر سيطر عليها بدرجة كبيرة الى حد أنها ارتجفت من الرهبة فقد تصورت انها فى اللحظة التى ترى فيها (فريد) ستسقط على الأرض ويصعقها الايمان ٠ وشدت عضلات وجهها وجسمها متأهبة للصاعقة التى ستحل بها حين يقع بصرها على فريد سائرا بين الناس ، وظلت عيناها تبحلقان فى الوجوه المارة ولا ترمشان ، وانفاسها تهبط ولا تصعد ، وقلبها يدق بعنف وكأنه يفرغ آخر جرعاته ٠

ومرت لحظة ولم تر (فريد) ، وابتلعت ريقها ، كأنما تسترد بعض هدوئها ، كأنما تحمد الله على أنه لم يظهر وعلى أنها لم تصعق • ومرت لحظة أخرى فبدأت تشعر بالقلق لأن النبوءة لم تتحقق ولأنها سوف تسقط مرة أخرى فى هوة الانتظار ، لكنها كانت لاتزال تأمل فى أن تراه ، وظلت تحملق فى وجوه الرجال تفرز بسرعة كل وجه ، وكان بعض الرجال يشترك مع فريد فى شىء من الملامح والحركات ، وكانت عيناها تستقران لحظة على الشىء المتشابه وكأنها ترى جزءا حقيقيا من فريد •

ومر وقت طويل قبل أن تتأكد فؤادة من كذب النبوءة الغاشمة وارتخت عضلات رأسها ورقبتها فى خيبة أمل ، لكن راحة خفية كانت قد تسربت الى نفسها ، تلك الراحة التى تعقب التحرر من مسئوليات الايمان •

***

مضت ثلاثة أيام وأصبح المعمل معداً ، كان اليوم ثلاثاء بعد الظهر ، حين سارت فؤادة فى شارع قصر النيل فى اتجاه المعمل ، تحمل فى يدها لفة بها بعض أنابيب اختبار وخراطيم رفيعة من (الكاوتش) • كانت على الرصيف المواجه للمعمل فوقفت مع الواقفين عند الاشارة لتجتاز الشارع •

بينما هى واقفة تنتظر اللون الاخضر ، رفعت رأسها الى واجهة العمارة ،كانت اللافتات تغطى النوافذ والشرفات والأبواب والمساحات الخالية من الجدران ، لافتات بأسماء أطباء ومحامين ومحاسبين وخياطين ومدلكين وغيرهم من ذوى المهن الحرة • كانت الأسماء مكتوبة بخط اسود عريض فوق أرضية بيضاء فبدت لها كصفحة الوفيات فى جريدة • والتقطت عيناها اسمها فؤادة خليل سالم مكتوبا بأحرف سوداء فى أعلى الصفحة •• وأحست بثقل فى قلبها

كأنها تقرأ نعيها ·· لكنها كانت تعلم أنها لم تمت ، وانها واقفة عند الاشارة تنتظر اللون الاخضر ؛ وانها قادرة على تحريك ذراعيها · واصطدمت ذراعها وهي تحركها برجل كان يقف الى جوارها مع ثلاثة من الرجال ، وكانوا ينظرون جميعا الى واجهة العمارة ويقرأون اللافتات ، وخيل اليها انهم ينظرون الى اسمها هي بالذات ، فانكمشت داخل معطفها في خجل وخيل اليها ان حروف اسمها لم تعد خطوطا من الطلاء الاسود ، وانما أشياء مجسدة كالاعضاء ، كأعضاء جسمها لم تدر كيف تصورت هذا ، لكنها أحست وعيون الرجال تتأمل اسمها المعروض كأنما يتأملون جسمها العارى ممدودا فوق النافذة ، وفتحت الاشارة فاندست بين السائرين تتخفى بينهم · وتذكرت حادثة وقعت لها وهي في السنة الاولى بالمدرسة الابتدائية ·· كان مدرس الدين بأنفه المقوس الغليظ كمنقار البطة واقفا في الفصل يشرح للبنات الصغيرات مابين السادسة والثامنة من العمر تعاليم الدين التى تنص على احتشام الاناث ·· وقال في ذلك اليوم ان الأنثى لابد أن تغطى جسمها لأنه عورة ، ولا تتكلم في حضرة الرجال الغرباء لأن صوتها عورة ، وقال أيضا ان اسمها عورة ويجب ألا يذكر علنا أمام الرجال الغرباء · وضرب مثلا بنفسه قائلا : حين يعن لى وللضرورة القصوى أن أذكر زوجتي في حضرة الرجال فانى لا أنطق اسمها الحقيقي وانما أطلق عليها اسم الجماعة ·

كانت فؤادة الطفلة الصغيرة جالسة تسمع ، ولم تكن تفهم شيئا مما يقال · لكنها كانت تقرأ ملامح المدرس وهو يتكلم ، وحين نطق كلمة عورة لم تفهم معناها ، لكنها أحست من التعبير الذى ارتسم على ملامحه انها تعنى شيئا قبيحا ومزريا للغاية فانكمشت في الدرج حسرة على نفسها المؤنثة · وكان يمكن أن يمر اليوم بسلام كأى يوم آخر لولا أن مدرس الدين عن له في تلك اللحظة أن يسألها عن معنى

ما قاله ٠٠ فوقفت تنتفض من الذعر ، وبينما هى واقفة لم تدر كيف فلت البول من بين ساقيها بغير ارادة ، واتجهت عيون البنات جميعا الى ساقيها المبتلتين ، وأرادت أن تبكى لكنها لم تستطع من شـــدة الخزي ٠

***

أصبحت فؤادة فى معملها الكيماوى ٠٠ كل شيء من حولها يبدو جديدا مغسولا ينتظرها ٠٠ الأنابيب ، المخابير ، الأجهزة ، الأحواض وكل شيء ٠٠ واقتربت من الميكروسكوب الموضوع على منضدة خاصة لها ضوء خاص ، وحركت مساميره ، وهى تنظر من خلال العدسة ، ورأت دائرة الضوء نظيفة خالية وقالت لنفسها : ربما أجد ضالتى يوما فى هذه الدائرة ٠

وشعرت برغبة فى العمل ، فلبست الفوطة البيضاء وجهزت الأنابيب ، وأشعلت موقد الغاز ، كان ضوء اللهب زاهيا فأمسكت أنبوبة اختبار بماسكها المعدنى الخاص وغسلتها غسلا دقيقا خشية أن تظل بها ذرة تراب وقربتها من لسان اللهب حتى جفت تماما ثم شدت عضلاتها وتأهبت لاجراء البحث ٠

لكنها ظلت ممسكة بالأنبوبة الفارغة تحملق فيها وكأنها نسيت موضوع البحث وأحست بعرق بارد يندي جبينهـــا وقد فوجئت بســؤال بدهى كانت تعرف جوابه دائما ، لكنهـا حينما ووجهت بالسؤال وبدأت تفكر هرب منها الجواب ، وكلما كانت تفكر وتفكر كان يهرب منها أكثر وأكثر ٠ وتذكرت يوما قرأت لها زميلة الفنجان لتدلها على بعض أحداث المستقبل ٠٠ وبينمـــا كانت الزميلة تقــرأ الفنجان سألتها فجأة : ما اسم أمك ؟٠٠

لم تدر فؤادة كيف فاجأها السؤال حتى انها نسيت اسم أمها ، وألحت الزميلة فى معرفة الاسم ، وكلما كانت تلح بالســـؤال كان

الاسم يهرب من ذاكرة فؤادة واضطرت الزميلة في النهاية أن تواصل قراءة الفنجان بغير اسم الأم ، ولـــكن فؤادة تذكرت الاســـم فى اللحظة نفسها التى كفت فيها الزميلة عن السؤال ٠

ظلت فؤادة تحملق فى الأنبوبة الفارغة ثم وضعتها فى حامل الأنابيب وأخذت تروح وتجيء فى الحجرة مطرقة الرأس ٠٠ كل شيء يمكن أن يختفي الا هذا ٠٠ كل شيء يمكن أن يهرب منها الا هذا ٠٠! انها لن تحتمل اختفاءه هو الآخر ، لن تحتمل هروبه ٠٠ فهو الشيء الوحيد الباقي لها ، هو السبب الوحيد الذى يبقيها على قيد الحياة ٠

وتوقفت عند النافذة وفتحت الزجاج ، ولفح الهـواء البـارد وجهها فأحست بشيء من الانتعاش وقالت لنفسها : انه الارهـاق ، يجب ألا أفكر فى البحث وأنا مرهقة ٠ ونظرت من النافذة ٠ كانت اللافتة الكبيرة معلقة فى حديد الشرفة ، ورأت الشارع بعيدا ٠٠ والناس يسيرون فى طريقهم دون أن يرفعوا رءوسهم الى أعلى ، غير عابئين بمعملها الكيماوى ٠٠ وخيل اليها أن أحدا لن يفطن الى وجود معملها ولن يطرق بابها زبون واحد ٠٠ ومصمصت شفتيها فى أسى ، وهمت بأن تغلق النافذة حين لمحت امرأة تقف على الرصيف وتلوى رأسها الى فوق وتنظر ناحية نافذتها ٠٠ ودب الحماس فى جسمها فجأة ٠٠ لابد أنها مصابة بداء النقرس وقد جاءت لتحليل بولها ، وأسرعت الى الحجرة الخارجية التى كتب على بابها حجرة الانتظار وعدلت بعض الكراسى المعوجة ، ونظرت الى نفسها فى المرآة الطويلة بجوار الباب ٠ ورأت الفوطة البيضاء تتدلى الى ما فوق ركبتها كحلاقى الشعر وغضت الطرف عن فمها المنفرج ونظرت فى عينيها وابتسمت وهى تهمس لنفسها : فؤادة خليل سالم صـــاحبة معمل للتحاليل الكيمائية ٠٠ نعم انها هى ٠

وسمعت أزيز المصعد يتوقف ، وسمعت بابه يفتـح ويغلق ، وطرقع كعب الحذاء الثقيل العالى على أرض الممر البـلاط ٠ وانتظرت

فؤادة وراء الباب لتسمع صوت الجرس لـــكنها لم تسمع شيئا ، ففتحت شراعة الباب بهدوء شديد ، ورأت ظهر السيدة وهى تدخل من باب الشقة المجاورة لها ، وقرأت الرقعة النحاسية الصغيرة فوق الباب : معهد شلبى الرياضى للتدليك والتخسيس •

وأغلقت الشراعة ، وعادت الى الحجرة الداخلية التى كتب على بابها : حجرة التحليل والأبحاث ، وأشاحت بوجههـــا عن الأنبوبة الفارغة ، وأخذت تروح وتجيء فى الحجرة ثم نظرت فى الساعة •• كانت الثامنة ، وتذكرت أن اليــوم هو الثـلاثاء ، فخلعت الفوطة البيضاء بسرعة وألقتها على أحد الكراسى ثم خرجت الى الشـــارع مسرعة •

الثلاثاء المــاضى لم يأت ، ربما لسبب قاهر ، وها هو ثلاثاء آخر ، أتراه يأتى فى الموعد ؟ • أيمكن أن تذهب الى المطعم فتجده جالسا الى المائدة ؟ ظهره ناحيتها ووجهه ناحية النيل •• ان قلبها يخفق ولـكن تهتز داخله تلك الجلطة التى تجمدت وتقلصت وثقلت ككرة الرصاص •• انها لن تجده فلماذا تذهب الى المطعم ؟•• وحاولت أن تغير اتجاهها وتعود الى البيت لكنها لم تستطع ، كانتقدماها تندفعان بغير وعى فى اتجاه المطعم كحصان جامح شد اللجام من يد صاحبه وانطلق يجرى وحده •

وصفع عينيها ظهر المائدة العارى بغير مفرش ، الهواء يضربه من كل جانب كصخرة عاتية هرمة فى قلب بحر هائج • ووقفت لحظــة ساهمة ثم خرجت من المطعم مطرقة ، وسارت بخطوات بطيئة وثقيلة حتى وصلت بيتها •

***

كانت أمها فى ركن من الصالة تصلى،ظهرها للبــاب ووجههــا للحائط ، ووقفت لحظة تتأملها • كان ظهرها المقوس ينحنى الى الأمام

فيرتفع طرف جلبابها عن بطن ساقيها وتركع على الأرض بضع لحظات ثم تنهض واقفة لتنحنى مرة أخرى الى الأمام ويرتفع جلبابها كاشفا عن بطن ساقيها • ورأت فؤادة عروقا كبيرة زرقاء نافرة فى بطن ساقيها كالديدان الطويلة المتعرجة وقالت لنفسها : مرض خطير فى القلب أو الشرايين • وركعت أمها على الأرض ثم لوت رأسها ناحية اليمين وهمست ببضع كلمات ثم ناحية اليسار وهمست بالكلمات نفسها ونهضت مستندة بيدها على الكنبة ووضعت قدميها فى الشبشب واستدارت لترى فؤادة وراءها • وقالت وهى تبصق فى فتحة جلبابها عند العنق : بسم الله الرحمن الرحيم ••! متى دخلت ؟•• وقالت فؤادة وهى تجلس على الكنبة تتنهد فى اعياء : الآن • وجلست الأم على الكنبة الى جوارها وقالت وهى تتأملها : يبدو انك متعبة •

كانت على وشك أن تقول متعبة جدا،لكنها نظرت فى وجه أمها ورأت عينيها الواسعتين مشربتين باصفرار واضح لم تره من قبل فقالت : اشتغلت كثيرا فقط ، هل تشعرين بتعب يا ماما ؟ •• وقالت الأم فى دهشة : أنا •• أى تعب ؟ وردت قائلة : فى القلب مثلا •• وقالت الأم : لماذا ؟•• وقالت فؤادة : لاحظت عروقا نافرة فى رجليك وأنت تصلين وقالت الأم : وما دخل القلب بالرجلين ؟ قالت : الدم يمشى من القلب الى الرجلين •

وشوحت الأم بيديها فى لامبالاة : يمشي كما يمشي • أنا لا أشعر بتعب وقالت فؤادة : لا نشعر أحيانا بالتعب لكن المرض يكون كامنا فى أجسامنا • ومن المفيد أن نبحث من الآن • وقالت الأم وهى تربع رجليها فوق الكنبة : أنا أكره الأطباء كالعمى •

وقالت فؤادة : لن تذهبى الى طبيب • سأتولى أنا البحث •• وقالت الأم فى دهشة : أى بحث ؟•• وردت فؤادة : سآخذ عينة من بولك وأحللها فى معملى • وابتسمت الأم ابتسامة صغيرة وقالت بصوت عال : آه فهمت ••! تريدين اجراء تجاربك على •

ونظرت اليها فؤادة لحظة ثم قالت : أى تجارب ٠٠ انى أعرض عليك خدمة بغير مقابل ٠ وقالت الأم : أشـــكرك جدا ، أنا فى تمام الصحة ولا أريد أن أوهم نفسى بمرض ٠ وقالت فؤادة فى ضيق : لن يكون هناك أى وهم يا ماما ولن يكون عندك مرض ٠ وقالت الأم : اذن ما فائدة التحليل ٠٠ وقالت فؤادة : لنتأكد من عدم وجود المرض هذا شيء ، والشيء الآخر أن التحليل ٠٠ وسكتت لحظة ثم قالت بصوت منخفض : التحليل فى حد ذاته فن يلذ لي أن امارسه ٠

وقالت الأم وهى تقلب شفتها السفلى فى امتعاض : وما هو الفن أو اللذة فى تحليل البول ٠٠ ! وردت فؤادة وكأنها تكلم نفسها : انه عمل يعتمد على الحواس ، كالفن سواء بسواء ٠ وقالت الأم : أى حواس ؟ ٠٠ وقالت فؤادة : الشم ، اللمس ، النظر ، التذوق ٠٠ وصـــاحت الأم قائلة : تذوق ٠٠ ونظرت الى ابنتها لحظة ثم قالت : يخيل الى أنك لا تعرفين شيئا عن هذه التحليلات ٠

ونظرت فؤادة الى أمها ، ورأت فى عينيها نظرة غريبة ، تشبه النظرة التى رأتها فى عينيها فى صورة الزفاف ، نظرة قاســـية ، متشككة ، فاقدة الثقة فيمن أمامها فقدانا مريرا ، وأحست بسخونة ترتفع فى رأسها ووجدت نفسها تقول بغير وعى : أنا أعرف لمـــاذا ترفضين التحليل ٠ أنت ترفضين لأنك لا تثقين فى تحليلى ٠ وارتفع صوتها بغير ارادة وصاحت : أنت لا تثقين فى اننى يمكن أن أعمـــل شيئا ٠٠ هذه هى نظرتك لى دائما ، وهذه كانت نظرتك دائما لأبي ٠

وفتحت أمها فمها فى دهشة ثم قالت : ماذا تقولين ؟ ٠ وردت بصوت أكثر ارتفاعا : نعم ، أنت لا تثقين فى ٠٠٠ هذه هى الحقيقة التى كنت تخفينها دائما عنى ٠

ونظرت اليها أمها فى دهشة شديدة وقالت بصـــوت واهن : ولمـــاذا لا أثق فيك ؟٠٠

وصاحت فؤادة : لأنني ابنتك ·· فالناس دائما لا ترى الأشياء الثمينة التى تمتلكها لمجرد أنها تمتلكها ·

وأطرقت فؤادة رأسها الى الأرض وأمسكته بيديها كأنها تشعر بصداع شديد،وراحت الأم تتأملها فى صمت واشفاق ثم قالت بصوت حنون : من قال لك اننى لا أثق فيك يا ابنتى ·· أنت لا تعرفين كيف أحسست بك حين رأيتـــك لأول مرة بعد ولادتك · كنت نائمة الى جوارى كالملاك الصغير تتنفسين بهدوء وتنظرين حولك فى دهشـة بعينيك الصغيرتين اللامعتين · وحملتك بين ذراعى ورفعتك الى فوق لبراك أبوك وقلت له : انظر اليها يا خليل · والقى عليك أبوك نظرة خاطفة وهو يقول فى أسى : انها بنت · وقلت له وأنا أقـــربك من وجهه : ستكون امرأة عظيمة يا خليل ، أنظر اليها ، أنظر فى عينيها ، قبّلها يا خليل ! قبّلها ··! وقربتك منــه حتى كاد وجهـــك يلامس وجهه ، لكنه لم يقبلك وأشاح بوجهه بعيدا عنا وتركنا وخرج ·· ومسحت الأم بكمها دمعة صغيرة بللت جفنيها وقالت : كرهته فى تلك الليلة أكثر من أى ليلة أخرى ، وبقيت طول الليل صاحية أنظر الى وجهك الصغير وأنت نائمة ، وكلما كنت أقـرب أصبعى من يدك تلتف أصابعك الصغيرة الرقيقـــة حول اصبعى وتمسكه بقوة ولا تتركه · وظللت أبكى حتى طلع النهار · ولا أدرى يا ابنتى ما المرض الذى أصـــابنى فقـد ارتفعت حرارتى فجأة وفقدت الوعى أياما ·· وحينما أفقت واستردت صحتى عرفت اننى نقلت الى مستشفى حيث انتزعوا من جسمى الرحم فأصبحت عقيما ·

وأخرجت منديلها من جيب جلبابها لتمسح الدموع التى تسربت الى أنفها وقالت : كنت أنت الشىء الوحيد لى فى الحياة ، وكنت أدخل عليك حجرتك وأنت ساهرة تستذكرين وأقول لك ·· وغلبتها الدموع فوضعت المنديل فوق عينيها لحظة ثم رفعته عن عينين محتقنتين بالدم وقالت : هل نسيت يا فؤادة ؟··

كانت فؤادة تقاوم ألماً حاداً فى نصف راسها ، وكانت صامتة شاردة كأنها نصف نائمة وقالت بصوت ضعيف : لم أنس يا ماما •

وسألت الأم فى رقة : ماذا كنت أقول لك يا فؤادة ؟•• وقالت فؤادة فى شرود : كنت تقولين انك واثقة من اننى سأنجح وأسبق كل زملائى ••

وانفرجت شفتا الأم الذابلتان عن ابتسامة واهنة وقالت : أرأيت ؟•• كنت واثقة دائما منك •• وقالت فؤادة : كنت تتصورين اننى أحسن من كل البنات •

وقالت الأم فى شىء من الحماس : لم أكن أتصور فقط • كنت متأكدة •

ونظرت فؤادة فى عينى أمها وقالت : ولماذا كنت متأكدة ؟ • وقالت الأم بسرعة : هكذا •• بغير سـبب •• وحاولت فؤادة أن تثبت عينيها فى عينى أمها لترى نظرتها ، وتفهمها ، وتعرف سر ذلك التأكد الذى كان يلازمها لكنها لم تر شـيئا • وشـعرت بشىء من الضيق تحول بعد لحظة قصيرة الى غضب خفيف ، وقالت لأمها فجأة : هذا التأكد أفسد حياتى ••

وارتفع الجفنان الخاليان من الرموش عن مساحة أكبر من بياض العينين الاصفر ذى الشعيرات الدموية الحمراء وقالت الأم فى دهشة شديدة : ماذا ؟••

وقالت فؤادة بغير ارادة وكأنما يلقنها شخص من الماضى البعيد : هذا التأكد كان يطاردنى كالشبح ، كان يثقل قلبى • ولم أكن أنجح فى الامتحانات الا ••• وسكتت لحظة وابتلعت ريقها بصوت مسموع ثم واصلت كلامها : نعم ، لم أكن أنجح الا من أجلك أنت •• وكان

هذا يعذبني ‥ نعم كان يعذبني لأنني كنت أحب العلوم وكان يمكن أن أنجح وحدي ‥ وأمسكت رأسها بين يديها وضغطت عليه بقوة ٠

وسكنت الأم لحظة واجمة ثم قالت في أسى : أنت مرهقة يافؤادة الليلة ‥ ماذا حدث في الايام الاخيرة ؟ ‥ أنت لست في حالتك الطبيعية ٠

ظلت فؤادة ، مطرقة صامتة ، تضغط بكلتا يديها على رأسها وكأنما تخشى عليه أن ينكسر ، كان هناك ألم حاد يشق رأسها نصفين ، وفي مكان ما من مؤخرة رأسها كانت هناك نقطة تكشف عن نفسها ، لم تكن تعرف تماما ما هي ؛ ولكن خيل اليها انها بدأت تكتشف السبب الحقيقي للحزن الغامض الذى كان ينتابها أحيانا حين تمر بها لحظة سعيدة ٠

لم يكن هذا السبب سوى أمها ، كانت تحب أمها أكثر من أى شيء آخر ، أكثر من فريد ، وأكثر من الكيمياء ، وأكثر من الاكتشاف وأكثر من نفسها ٠ ولم تكن لتتحرر من هذا الحب رغم انها كانت تريد أن تتحرر ٠ كأنما وقعت في شرك أبدى، التفّت أسلاكه وخيوطه حول قدميها ويديها ولم تستطع منه فكاكا طوال حياتها ٠

وتحرك اصبعها الصغير بغير ارادة وزحف فوق شفتها العليا ثم دخل في فمها ، وأخذت تعض طرف اصبعها كطفل ظهرت أسنانه ولا يزال يمص ثدي أمه ٠ وانقضت فترة طويلة وهي جالسة على الكنبة في الصالة ، رأسها بين يديها وطرف اصبعها الصغير بين أسنانها ، وخيل اليها أن أمها تركت الصالة ، ولم تعرف أين ذهبت لكنها عادت بعد قليل وفي يدها زجاجة صغيرة مليئة بسائل أصفر ومدت يدها النحيلة المعروقة الى ابنتها ممسكة بالزجاجة ٠ ورفعت فؤادة عينيها اليها فسقطت الدمعة الحبيسة من بينهما في حجرها ٠

❋ ❋ ❋

أحست فؤادة بلذة كبيرة وهي تغسل الانابيب وتعد زجاجات القلويات والاحماض ، وتضبط أجهزة التحليـــل الكيميائى وقراءة الالوان ، واشعلت الموقد وسكبت قليلا من بول أمهـــا فى أنبوبة الاختبار وأمسكت الانبوبة بماسـكها المعــدنى وقربتها من طرف اللهب • وبينما هى فى هذا الوضع أدركت لمـــاذا ألحت على أمها لتأخذ منها عينة • كانت تريد أن تستخدم أدوات المعمل الجديدة •

كانت العينة خالية من الزلال ، فلم تجمد الحرارة منها شيئا واطفأت الموقد ، وسكبت قطرة صغيرة من البول البارد فوق شريحة زجاجية وضعتها تحت الميكروسكوب • ونظرت من خلال عدسته فرأت تلك الدائرة الـكبيرة تتحرك داخلهـا دوائر صــغيرة مختلفـة الاحجام والاشكال • وحركت المرآة لتضبط الضوء ولفّت المسمار الجانبى الخاص بالعدسة المكبرة فاتسعت الدائرة الكبيرة وزادت عن المدار الذى تدور فيه عيناها ، وكبرت الخـــلايا الدائرية الصغيرة المهتزة وبدت كحبات من العنب تطفو فوق ماء •

وركزت عينها على احدى الخلايا ، كان لها شكل البويضة ، بل انها كانت بويضة فعلا • كانت تهتز ككائن حى وتتذبذب داخلها نويتان قاتمتان كالعينين • وأمعنت النظر فيهما ، وخيل اليها أنهما تنظران اليها نظرة أليفة كنظرة أمها • وتذكرت ان هذه البويضة هى بويضة أمها ، وانها هى نفسها كانت هذه البويضة منذ ثلاثين سنة ، لكن أمها لم تضعها فى زجاجة وتغلق عليها بسدادة ، كانت تتشبث بلحمها كمـا تتشبث القملة بجــلدة الرأس وكانت تأكل خلاياها وتمص دمها •

لم تدر فؤادة كيف استرسلت في أفكارها ، وكيف تصورت بكثير من الاندهاش وعدم التصديق منظر أمها وهي مستلقية فوق السرير والى جوارها أبوها • لم تكن تخيلت من قبل أن أمها مارست تلك الاعمال التى تمارسها النساء قبل انجاب الاطفال • لكنها كانت على يقين من ان أمها قد مارستها بدليل وجودها فى الحياة• وحاولت أن تتصور شكل أمها فى مثل هذا الموقف ، وخيل اليها انها كانت تظل بتلك الصورة التى عرفتها بها ، الطرحة البيضاء تلتف حول رأسها ، والجلباب الطويل فوق جسمها ، والجورب الاسود الطويل فى قدميها ، والشبشب الصوفى أيضا • نعم ، لقد تصورتها بكل تلك الاشياء راقدة فوق السرير بين ذراعى أبيها مطبقة شفتيها فى صرامة وفوق جبينها العريض تكشيرة جادة ، تؤدى واجبها الزوجى بالحركات الوقورة البطيئة نفسها التى تؤدى بها الصلاة •

وسمعت جرس الباب يرن • كانت قد سمعته منذ رأت البويضة لكنها ظنت انه جرس الشقة المجاورة ، أو جرس عجلة فى الشارع • لكن الرنين تكرر واستمر فتركت الميكروسكوب وذهبت لتفتح الباب •

كانت الخلايا الدائرية لا تزال تهتز أمام عينيها حين وقع بصرها على العينين الجاحظتين تهتز داخلهما نويتان بارزتان سوداوان • وخيل اليها انها لا تزال تنظر فى الميكروسكوب فدعكت عينيها بيدها وهى تقول : تفضل يا أستاذ ساعاتى •

سار وراءها بجسمه الضخم الى حجرة الانتظار فى خطوات محرجة وكأنه لا يعرف سببا وجيها لمجيئه • وقال وهو يتلفت حوله الى الكراسى المعدنية الجديدة : مبروك • الف مبروك • لقد أصبح معملا جميلا جدا • وجلس على أحد الكراسى وهو يقول : فكرت ان أمر عليك قبل اليوم أكثر من مرة لأهنئك على المعمل الجديد لكننى

خشيت أن •• وسكت لحظة وتذبذبت عيناه الجاحظتـــان من تحت النظارة السميكة ثم قال : لكنى خشيت أن ازعجك •

وقالت فى هدوء : اشكرك •

ورفع عينيه وقرأ الرقعة النحاسية فقال فى دهشة : حجرة الابحاث ! ونهض وادخل رأســـه من باب الحجرة فرأى الاجهزة والادوات والانابيب والاحواض الجديدة فقال فى سرور واعجاب : هذا رائع ! رائع ! لقد أصبح معملا كيماويا بمعنى الـكلمة •

ونظرت حولها فى شىء من الدهشة ، لم تكن أحست بعـد انها تمتلك المعمل ، أو انه أصبح معملا كيماويا بمعنى الكلمة • كان يخيل اليهـا انه ليس كاملا وان أشياء كثيرة تنقصه ، فقالت بدهشة حقيقية : حقا •• هل ترى انه معمل كيماوى ؟ ••

ونظر اليها مندهشا وقال : وانت •• الا ترين ذلك ؟

وقالت فى شرود وهى تتأمل معملها بعين جديدة : نحن لا نرى دائما الأشياء التى نمتلكها •

وابتسم ، فقفزت شفته العليا كاشفة عن اسنانه الـــكبيرة الصفراء وقال : هذا صحيح خاصة فى حالة الزوجات والأزواج • وضحك ضحكة قصيرة ثم عاد وجلس على كرسيه • وظلت واقفـة فقال لها : يبدو انك مشغولة ، هل انا اعطلك ؟ •• وجلست على كرسى بجوار الباب وهى تقول : كنت أجرى بعض الأبحاث •

وابتسمت بغير سبب ، ولعلها تذكرت شكل بويضة أمها ، والتهمت نظراته الحدباء وجهها وقال : سأقول لك شـــيئا • هل تعرفين انك تشبهين ابنتى •• الابتسامة نفسها ، العينان ، القوام، كل شىء •

وأحست فؤادة بوقع نظراته فوق جسمها فصمتت مطرقة ، وهمست لنفسها : انه يريد أن يثرثر فحسب • وقال : حين رأيتك لأول مرة أحسست بهذا الشبه الغريب ، وخيل الي أنك قريبة مني •• وربما هذا هو السبب الذى جعلنى أصمم بينى وبين نفسى على أن أعطيك الشقة •

نعم ، انه يريد أن يترثر ، وها هو يذكر الشقة ، ما الذى أتى به فى هذا الوقت ؟ لقد أفسد عليها لذة تحليل بول امها •

واكمل كلامه قائلا : فكرت فى الايام الماضية ان آتى واساعدك فى تجهيز المعمل ، لكنى خشيت ان تظنى بى سوءا • النساء عندنا يُسئن الظن بأى رجل يبدى رغبته فى المساعدة ، اليس كذلك ؟•

ولم ترد ، كانت قد شردت فجأة فى شيء آخر • تذكرت حادثة صغيرة وقعت لها وهى طفلة • كانت تلعب مع الاطفال فى الشارع، وكان هناك الرجل العجوز الأبله الذى يتجول فى الشوارع بغير هدف ويجرى الأطفال خلفه يهللون : العبيط أهه ! وكانت تجرى خلفه مع الاطفال وتهلل معهم • وفى ذلك اليوم جرت خلفه أكثر من اللازم فابتعدت عن الاطفال واقتربت منه • واستدار اليها الرجل العجوز ونظر اليها نظرة مخيفة فارتعدت وخيل اليها انه سيجرى خلفها ويمسكها فاطلقت ساقيها للريح ، وكفت من يومها عن الجرى خلفه مع الاطفال ، وكانت تختبىء بسرعة حين تراه ، وقد خيل اليها انه يخصها دون الاطفال بتلك النظرة المخيفة المرعبة •

لم تدر فؤادة لم تذكرت تلك الحادثة البعيدة ، لكن عينى الرجل العجوز الأبله كانتا جاحظتين كهاتين العينين • وتلفتت حولها فى المعمل ، وكأنما اكتشفت فجأة انها وحدها مع الساعاتى فى الشقة ، فشعرت بخوف غامض ونهضت وهى تقول : لابد ان

أذهب الآن فقد تذكرت شيئا هاما • ونهض الساعاتى قائلا : متأسف لاننى عطلتك • هل تودين ان أوصلك بعربتي ؟ •• وقالت وهى تسرع وتفتح الباب: لا •• اشكرك فالمكان ليس بعيدا •وخرج من الباب فأغلقت الشقة بالمفتاح وأسرعت أمامه لتهبط السلم ، فقال لها مندهشا : الا تنتظرين المصعد ؟ •• وقالت وهى تهبط السلم مسرعة : افضل الهبوط على قدمى •

* * *

سارت فى الشارع تتطلع الى نوافذ المحلات ، وكان الليل قد بدأ يهبط بثقله وكثافته على الارض ، واضيئت أنوار الشارع والمحلات • لم تشعر برغبة فى العودة الى البيت ، فسارت تحملق فى الوجوه التى تمر بها ، وكانت قد ادمنت تلك العادة الغريبة ، عادة مقارنة الرجال بفريد ، فى ملامحهم •• فى حركاتهم •• فى أحجامهم ، وأدمنت شيئا أغرب من هذا ، وهو خلق تنبؤات مبتكرة والانسياق وراء احتمال تحققها • كانت تقول لنفسها مثلا وهى سائرة فى الشارع : ستمر بى ثلاث عربات ملاكى يتبعها تاكسي ، وسأنظر داخل التاكسى فأرى فريدا جالسا • وكانت تبدأ فى عد العربات التى تمر بها ولا تتحقق النبوءة فتعض شفتها السفلى وتقول : ومن قال انها يمكن أن تتحقق ؟ •• انها ليست الا وهما • وتواصل سيرها ، وبعد قليل تخطر لها نبوءة أخرى بشكل آخر •

ووصلت الى نهاية شارع قصر النيل فوجدت جمعا من الناس يلتفون حول عربة ، وسمعت الأصوات تقول : رجل مات • ووجدت نفسها تندفع بين الناس وتشق الزحام وهى تلهث وترتجف حتى وصلت الى الرجل الممدود فوق الارض ، ونظرت فى وجهه ولم يكن فريدا ، فعادت تخرج من بين الزحام بخطى بطيئة ثقيلة •

وتركت شارع قصر النيل وسارت فى اتجاه شارع سليمان • كان الشارع مزدحما بالناس لكنها لم تر أحدا • كانت تسير شاردة، تدرك الاجسام من حولها بحدودها الخارجية التى تفصلها عن كتلة الدنيا الهلامية الضخمة ، فتعرف بغير ارادة أن ذلك الجسم يشغل ذلك الحيز من الشارع وعليها ان تتفادى الاصطدام به • وهكذا سارت دون أن تصطدم بشخص أو جدار •

وخيل اليها ان حاجزا ما يسد الطريق ، ورفعت رأسها فرأت طابورا طويلا من الناس يقف فى عرض الشارع ، فوقفت هى الأخرى •

كان الطابور يتناقص شيئا فشيئا ، حتى وجدت نفسها أمام شباك التذاكر ، فاشترت تذكرة واتجهت مع الناس الى الباب الواسع • كانت الصالة مظلمة ، وسقط نور الكشاف الصغير على ظهر تذكرتها وصعدت السلم وراء كرة الضوء حتى جلست فى كرسيها •

كان الفيلم قد بدأ منذ قليل ، ورأت على الشاشة رجلا وامرأة يتعانقان فوق سرير ، وتحركت الكاميرا مبتعدة عنهما لتظهر قدم رجل تطل من تحت السرير ثم عادت الى الرجل والمرأة وكانا لايزالان ملتحمين فى قبلة طويلة • واحست بذبابة تمشى على ساقها فهشتها بيدها وهى تحملق فى الشاشة •

وانتهت القبلة وارتدى الرجل حلته وخرج من الباب ، وقالت المرأة شيئا فخرج الرجل الآخر من تحت السرير وبدأ العناق من جديد •

وخيل اليها ان الذبابة تعود ، لم تكن ذبابة صغيرة كالذباب ، فهى كبيرة فى حجم صرصار ، وهى لا تقفز بسرعة الذباب وانما

تزحف ببطء صاعدة فوق ساقها · وكانت حريصة على الا يفوتها شيء من مناظر الفيلم فظلت شاخصة ببصرها الى الشاشة ومدت يدها فى الظلام لتقبض على الحشرة قبل ان تصعد فوق ركبتها ، لكن اصابعها تقلصت فوق شيء صلب ، فنظرت فى فزع الى يدها ، ووجدت انها تقبض على اصبع الرجل الجالس الى جوارها · وظلت ممسكة باصبعه فى يدها ونظرت اليه فى غضب ، لكنه لم يلتفت اليها ، وظل ينظر الى الشاشة ، فى استغراق شديد وكأنه لا يراها، وكأن اصبعه ليست ممسوكة فى يدها ، وقذفت باصبعه فى وجهه حتى كادت تقلع احدى عينيه لكنه ظل يحملق فى الشاشة كالنائم، ونهضت بسرعة من جواره وغادرت السينما ·

***

تمددت فوق سريرها ، وراحت تحملق فى السقف ، فى تلك الدائرة الصغيرة المشرشرة التى سقط عنها الطلاء الأبيض · وشعرت ببرودة فشدت الغطاء فوق جسمها وأغمضت عينيها لتنام ، لكنها لم تنم ، وفكرت ان تمد يدها الى التليفون وتطلب الرقم الخماسى كما تفعل كل ليلة قبل أن تنام ، لكنها لم تمد يدها وضغطت برأسها على الوسادة وهى تقول : يجب أن اكف عن هذه العادة · لكنها لم تكف · كانت تعرف أنه لن يكون هناك سوى الجرس الحاد الأخرس ، وانه لم يعد صوتا ، أو ذبذبات هواء تصل الى اذنها ، ولكنه قد تحول الى سيخ مدبب من الحديد ، يؤلم أذنها ، ليس ألما عاديا ، ولكنه ألم حارق كالنار ·

غير انها كانت قد ألفته ، وكانت فى الموعد المحدد كل ليلة تطلبه ، وتفتح اذنها للساعة وتدعه يدخل مؤلما خارقا ، كأنما كان الالم يريحها ، كمريض يكوى جسمه بالنار ليتخلص من نار أخرى اشد ، أو كمدمن الف طعم السم وأصبح يطلبه كل يوم ·

ولم يكن رنين الجرس يصل اليها خالصا ، كان يختلط بصوت شهيقها وزفيرها ودقات قلبهـــا ، ولم تكن تعرف هذا من ذاك ، فالاصوات كانت تمتزج وتتشابك وتصبح كلها صفيرا حادا متصلا، كذلك الصفير الطبـــيعى الذى يدوي فى الأذن حين تصمت كل الأشياء •

أجل ، كانت تنتظر الجرس كل ليلة كأنما أصبح حبا جديدا• لم تكن تنسى أنه جرس حاد أخرس ، لكنها كانت تعرف انه ينبعث من تليفون فريد ، ويرن فى بيت فريد ، ويرتطم بمكتب فريد الذى كثيرا ما جلسا عليه الى جوار بعضهما البعض ، ويصطدم بالكنبة الكبيرة التى كثيرا ما تمددا فوقها جنبا الى جنب ، ويحرك الهواء الذى تنفساه معا وزفراه معا •

وانقطع الجرس ، وجاءها صوت فريد يهمس فى اذنهـــا ، وأحست بذراعه حول خصرها ، وأنفاسه الساخنة على عنقها • ولم تكن نسيت أنه غاب عنها كل تلك الأيام لكنها بدت وكأنما نسيت كل شيء ، ولم تعد تذكر شيئا ، لم تعد تذكر ان لها رأسا أو ذراعين أو ساقين ، وفقدت كل حواسها ولم يبق منها الا شفتان متضخمتان ملتهبتان •

وفتحت عينيها لتنظر فى عينيه ، لكنه لم يكن فريد ، كان رجلا آخر ، له عينان ضيقتان زرقاوان وحاجبان كثيفان ، أول رجل أحبته • كانت طفلة صغيرة لا تذكر كم كان عمرها فى ذلك الوقت، لكنها تذكر انها كانت قد كبرت واصبحت تفتح عينيها كل صباح فتجد فراشها جافا • وكانت تكره البلولة وحمدت الله لانها تخلصت منها • لكن الله لم يخدع بحمدها فسرعان ما أصابها ببلولة من نوع آخر ، أشد خطرا ، فهى ليست بلا لون كالبلولة السابقة ، ما ان

تجف حتى تعود الملاءة بيضاء من جديد ، ولكنها ذات لون أحمر قان ، لا تضيع الا بالغسل الشديد الذى يلهب أصابعها الصغيرة ، وهى لا تضيع تماما بعد الغسل ، وانما تترك أثرا باهتا أصفر ٠

ولم تكن تعرف سببها الحقيقى ، فهى بلولة عشـــــواء تظهر وتختفى كما يحلو لها ، وظنت ان شبحا ما اغتال جسمها الصـــغير وهى نائمة ، أو أن مرضا خبيثا الم بها وحدها من دون البنات ٠ واخفت كارثة جسدها عن عينى أمها ٠ وفكرت أن تذهب وحدها الى طبيب ليشفيها سرا ، لكن أمها ضبطتها مرة وهى تغسل ملاءة السرير أمام الحوض ٠ودارت بها الارض من شدة الخزى وكورت الملاءة بيديها ورأت عينى امها تنظران اليها من تحت عتامة لم ترها من قبل ، وامتدت يدها الى الملاءة ففردتها ، ورأت البقعة الحمراء المتعرجة فوق النسيج الابيض راقدة ممددة كصرصار ميت ٠ وحاولت ان تنكر جريمتها الشائنة ، لكن امها بدت وكأنها مشتركة معها فى الجريمة، انها لم تفزع ، ولم تغضب ، بل انها لم تفاجأ على الاطلاق ٠ كانت وكأنها تتوقع حدوث هذه المصيبة لها ، وتستسلم لها اسـتسلاما هادئا ٠

ولم تطمئن فؤادة الى هــذا الهدوء ، بل انه أفزعها حتى ان جسمها ارتعد ٠ انها ليست كارثة اذن ، انها ليست مرضا شــاذا مؤقتا ، انها شىء عادىء ، عادى جدا ٠ وكان فزعها يزداد كلما زاد احساسها بعاديته ٠ كانت تتمنى أن يكون شيئا شاذا ، فالأشياء الشاذة محتملة لانها شاذة وغير دائمة ٠

واصبح جسمها الصغير يتغير ٠ كانت تحس التغيير يسرى فى جسدها كحية ناعمة لهــا ذيل طويل رفيع تلعب به فى صدرها وبطنها ، وتلدغها فى أماكن مختلفة من جسمها ٠ كانت اللدغات

مؤلمة ولذيذة ، وعجبت كيف يمكن لاحاسيس جسمها ان تبدو لها مؤلمة ولذيذة فى الوقت نفسه ، لكن جسمها كان وكأنه أكثر ذكاء منها • كان يبدو مقتنعا بالألم واللذة ، راضيا بهما جنبا الى جنب ، يحتضنهما معا بغير تعجب او دهشة •

كان جسمها يتغير فجأة وبالتدريج ، وكانت تحس التغيير ولا تحسه كهواء دافىء يدخل أنفها ، أو كماء فاتر ينسكب عليها بهدوء فهي تحمل كثافته فوق جسمها لكنها لا تحس حرارته لأنه من نفس حرارتها •

ودهشت حين رأت صدرها يوما فى المرآة ، لم يكن ذلك الصدر الاملس الذى ألفته عيناها ، ولكنه تقعر الى الامام على شكل قمعين ينتهيان بزبيبتين سوداوين يصعدان ويهبطان مع كل شهيق وزفير ، ويهتزان اذا ما اهتزت وكأنما سيسقطان من فوق صدرها كما يسقط البرتقال من فوق الشجرة لولا تلك الطبقة الشفافة من الجلد •

وبينما هى تهتز ، احست بشىء آخر يهتز خلفها ، واستدارت أمام المرآة فاكتشفت نهدين آخرين متكورين مشدودين بجلد سميك الى اسفل ظهرها • ووقفت لحظة تتأمل جسمها ، وخيل اليها انه جسم فتاة أخرى غيرها ، أو جسم امرأة كبيرة • وشعرت بشىء من الخزى وهى ترى تلك التعاريج والبروزات تعلن عن نفسها كالفضائح مع كل شهيق وزفير • لكن كان هناك شىء آخر غير الخزى ، شىء عميق ودفين ، يسربل نفسه بضباب كثيف ، شىء كالسرور الخفى أو الزهو الخبيث •

ولماذا تبقى كل هذه الصور القديمة فى ذاكرتها بجوار صورة

الرجل الاول ؟ لماذا تبقى على حين زالت صور أخرى كبيرة وحديثة ؟
٠٠ لكنها تعتقد ان هناك تفاعلا كيميائيــا لاشك يحدث في خلايا
الذاكرة ، يذيب بعض الصور ، ويركز بعض الصور ، ويشوه بعض
الصور ، يبقى منها اجزاء ويبتر اجزاء ٠ نعم ، يبتر أجزاء ، فقد بتر
النصف السفلي لجسم أول رجل في حياتها ٠ لماذا بتره ؟ ٠٠ انها
لا تعرف ٠ فهي لا تذكر انه كان يمتلك نصفا سفليا ، كان له رأس
كبير ، وعينان زرقاوان ضيقتان ، وكتفان وذراعان طويلتان ٠ كيف
كان يمشي بغير ساقين ، انها لا تذكر ، فهي لم تره أبدا وهو يمشي،
كان يطل من نافذة غرفته دائما ٠ وكان يمكن للكبار ذوي القامات
الطويلة ان يروا داخل الغرفة وهم سائرون على الارض في الشارع
لكنها كانت قصيرة ، ولم تكن ترى شيئا الا اذا قفزت ٠

كانت تتعمد ان تقفز الحبل تحت نافذته ، وفي كل قفزة تصوب
نظرة الى داخل الحجرة ٠ لم تكن ترى كل شيء بوضوح ، لأن رأسهـا
كان يهبط بسرعة ، لكنها استطاعت ان تلمح صورا ملونة معلقـة
على الحائط ، وحقيبة كبيرة فوق الدولاب ، ومكتبة فيها كتب ٠ كانت
تحب الصــــور الملونة أكثر من أي شيء آخر ، وقالت له يوما وهي
تقفز تحت النافذة : اريد صورة ملونة ٠ وقال لها : تعالى وانا أعطيك
صورة ٠ ولم يكن في استطاعتها ان تذهب بغير اذن من امها ٠ لكن
امها رفضت وقالت لها في شدة : لقد كبرت على القفز في الشارع٠
ودست نفسها في سريرها وهي تنتفض غضبا ، وكرهت أمها في
تلك اللحظة كراهية شديدة وحسدت صديقتها سعدية لأن أمهـــا
ماتت وهي تلدها ٠ ولم تبق في السرير كثيرا ، فقد نهضت ،وسارت
حافية على اطراف اصابعها تمسك حذاءها في يدها وأسرعت تجري
الى الشارع ٠

خفق قلبها الصغير حين طرقت بابه • كانت سعيدة لانهـــا ستحصل على صورة ملونة ، لكنها كانت تعرف أن الصورة وحدها ليست سبب سعادتها • كانت تريد أن ترى غرفته من الداخل • تريد ان ترى شكل دولابه ، وشكل سريره ، وشكل شبشـــبه ، وكانت تريد أن تمسك كتبه وأوراقه وصوره ، وان تلمس بيدها كل أشيائه •

وفتح البـــاب ، ودخلت وهي تلهث ، ووقفت بجوار الحائط تنتفض كدجاجة نتف ريشها في البرد ، وقال لها شيـــئا فاختنق صوتها ولم ترد • واقترب منها ، ورأت عينيه الزرقاوين تقتربان منها • وشعرت بخوف • كان شكل وجهه عن قرب غريبا ، وفي عينيه نظرة صارمة كعيني قط هائج • وشدها اليه بذراعيـــه الطويلتين فصرخت ، كانت تظن انه سيذبحها أو سيخنقها • وصفعها على وجهها قائلا : لا تصرخي ! •• لكنها ذعرت أكثر وصرخت أكثر • وبينما هي تحاول ان تفلت من بين ذراعيه سمعت طرقا شديدا على الباب وتركها وفتح الباب • وكادت تسقط على الارض ، فقد رأت أمها بلحمها ودمها واقفة في وسط الغرفة •

وفتحت عينيها فوجدت نفسها راقـــدة فوق السرير تنتفض من البرد ، وكان الظلام شديدا ، والنافذة مفتوحة ، وخيل اليها ان شبحا ما يتحرك خلف النافذة فارتعدت • لكنها عرفت انها شجرة الكافور تهتز مع دفعات الهواء • ونهضت وأغلقت النافذة ، ثم عادت الى السرير ودخلت تحت الغطاء الصوفي • وخيل اليها انها تسمع أنفاسا في الحجرة غير أنفاسها ، فاخرجت رأسها من تحت الغطاء ونظرت بحذر في الغرفة • ووقعت عيناها على شبح طويل واقف بجوار الدولاب وكادت تصرخ ، لكنها عرفت انه ليس الا الشماعة

ومن فوقها معطفها • واغمضت عينيها لتنام ، ولكنها أحست بحركة وكأنهـــا تأتي من تحت السرير ، ورغبت في أن تمد يدها وتضيء النور ، لكنها خشيت أن تخرج يدها من تحت الغطاء فينقض عليها الشبح القابع تحت السرير وظلت متـكورة تحت الغطاء ، مفتوحة العينين ، حتى سرى النوم في جسمها ساخنا كالدم •

***

كانت أشعة الشمس تدخل من شقوق الشيش حين استيقظت فؤادة • وظلت في الفراش متـكورة تحت الغطاء تتمنى بينها وبين نفسها لو انها بقيت في الفراش الى الأبد • لكنها نهضت وجرت جسمها الثقيل وسارت الى المرآة • كان وجهها شاحبا ، اكثر طولا مما كان ، وعيناها أكثر اتساعا وشفتاها الشاحبتان بينهما تلك الفرجة التي زادت اتساعا ، وبدت تحتها اسنانها أكثر بروزا وأمعنت النظر لحظة في عينيها كأنمـــا تبحث عن شيء ، ثم زمت شفتيها في امتعاض وسارت الى الحمـــام • غسلت جسمها بالماء الساخن وشعرت بانتعاش فابتسمت لنفسها ابتسامة صغيرة وهي تتطلع الى جسمها في المرآة • كانت طويلة ممشوقة وفردت ذراعيها وساقيها وهي تشعر بقوة كامنة في عضلاتها ، قوة لم تستنفد في شيء ، قوة حبيسة لا تعرف كيف تفرج عنها • وارتدت ملابســها وخرجت الى الشارع ، كان الهواء باردا منعشا والشـمس ساطعة دافئة وكل شيء يبرق ويهتز في التعاشق • وسارت تحرك ذراعيهـا بقوة في الهواء ، انها تشعر بقوة • ان في اعماقها طاقة كبيرة • انها تستقبل يوما جديدا بكل حماس • ولكن الى اين هي ذاهبة ؟ الى ذلك القبر الآسن الذي تفوح منه رائحة دورة المياه •• الى ذلك المكتب الأجرب الذي تجلس عليه ست ساعات دون أن تفعل شيئا•• أتبدد هذه القوة وهذا الحماس في لاشيء ••؟

ورأت حصانا يجر عربة • كان يضرب الأرض بأقدامه فى قوة ونشاط • وراحت تتأمل الحصان وكأنها تحسده • انه يستنفد قوته فى جر العربة ، انه يفرج عن طاقته • انه يحرك أقدامه فى سعادة • لو كانت حصانا لكانت الآن مثله ، تجر عربتها ، وتطرقع فوق الأرض بحوافرها منطلقة سعيدة •

وجاء الاتوبيس ٦١٣ ، ووقفت جامدة تنظر اليه بغير حراك كحصان جامح • لا ، انها لن تذهب الى الوزارة • انهـا لن تبدد ساعات النهار فى لا شيء • لن تبدد عمرها فى التوقيع فى دفتر الحضور والانصراف • من أجل ماذا ؟ •• تلك الجنيهات القليلة التى تأخذها كل شهر •• أتبيع عمرها من أجـل بضعة جنيهـات ؟ •• اتدفن ذكاءها فى تلك الحجرة المغلقة ذات الهواء الفاسد ؟•• نعم ، انه الهواء الفاسد الذى يبدد نشاطها ، انه الهواء الفاسد الذى يعطل افكارها ويقتلها قبل أن تنطلق • كثيرا ما خطرت لها افكار، وكثيرا ما طرأت لها فكرة البحث ، وكثيرا ما اقتربت من الاكتشاف، ولكن كل شيء كان يضيع فى تلك الحجرة المغلقة الأبواب والنوافذ ذات المكاتب الكالحة الخاوية والرءوس الثلاثة المحنطة •

وجاء الاتوبيس رقم ٦١٣ مرة أخرى ، وكادت تتحرك لتركب لكنها بقيت فى مكانها تنظر اليه بعينين ثابتتين • كل يوم تمر بهذه اللحظة دون أن تنتصر عليها • لو انها استطاعت اليوم فسـوف تستطيع كل يوم • انها مرة واحدة تنتصر فيها ، مرة واحدة تقطع فيها تلك العادة القبيحة •

وتلكأ الاتوبيس ، لـكنها ثبتت قدميهـا فى الارض ورفعت رأسها الى السماء•سيمضي الاتوبيس بعد لحظة دون أن يحملها معه وينتهى كل شيء ، والسماء ستظل كما هى عالية وزرقاء وصامتة ، ولن يحدث شيء • نعم ، لن يحدث أى شيء •

تنفست بعمق وهي تقول بصوت مسموع : لن يحدث أي شيء. ووضعت يديها في جيبي المعطف وسارت تدندن بلحن قديم ،وتنظر الى ما حولها في دهشة وفرحة ، كسجين خرج لاول مرة الى الشارع بعد سنين طويلة قضاها في السجن • ورأت بائع الجرائد فاشترت جريدة ومرت بعينها على عناوين الصفحة الاولى ثم مصمصت شفتيها. كانت هي العناوين العريضة الطويلة التي تراها كل يوم •• والوجوه هي الوجوه ، والأسماء هي الأسماء • ونظرت الى التاريخ في اعلى الصفحة وقـــد خيل اليها أنهـــا تمسك جريدة أمس أو الأسبوع الماضي أو السنة الماضية • وقلبت الصفحات وهي تبحث بعينيها عن موضوع جديد ، أو وجه جديد ، ووصلت الى الصفحة الأخيرة دون أن يلفت نظرها شيء ، فطوت الجريدة ووضعتها تحت ابطها • لكنها تذكرت انها رأت عينين جاحظتين في صورة من الصور ، وخيل اليها أنهما تشبهان عيني الســـاعاتي • وفتحت الجريدة مرة أخرى ، ولدهشتها الشديدة وقعت عيناها على صورة الساعاتي نفســـه وقرأت اسمه تحت الصورة : محمد الساعاتي رئيس الهيئة العليـــا للانشاءات والمباني • وتحرك أصبعها بغير وعي وتحسست العينين، خيل اليها أنهما بارزتان من الورق ، لكن الورقة كانت ناعمة ملساء بغير بروز •

وقرأت السطور تحت الصورة • كانت تصف اجتماعا عقـده الساعاتي لعمال الهيئة في كلام كثير تبين لها انها قرأته من قبل عدة مرات ، وأنها قرأت اسم الساعاتي عدة مرات ، ورأت صورته عدة مرات • وعجبت فؤادة كيف لم تربط بين هذا كله وبين الساعاتي صاحب العمارة الذي تعرفه • لكنها لم تتصور ابدا ان يكون ذلك الساعاتي موضوعا يمكن أن يذكر في الصحف • وأعادت النظر الى الصورة والاسم ثم طوت الصحيفة ووضعتها تحت أبطها •

كان البواب جالســـا على دكته فى الشمس حين وصلت الى العمارة • وانتصب واقفا حين رآها وجرى نحوها وهو يمد يده السوداء تمسك بورقة بيضاء صغيرة وفتحت الورقة وقرأت : سأمر فى السادسة مساء اليوم لأمر هام ، الساعاتى • ودخلت المصعد بينما كانت أصابعها تعبث بالورقة وتمزقها بغير وعى الى قطـــع صغيرة جدا ، وتلقى بها من خلال جدار المصعد الحديدى •

سيمر فى السادسة مســـاء ، ولأمر هام ••• ماذا يمكن أن يكون الأمر الهـــام ؟ •• ماذا يمكن أن يكون هاما فى نظرها ؟ •• موضوع البحث ؟ •• مكان فريد ؟ •• سقوط مبنى الوزارة ؟ •• هذه هى حياتها • لا شىء هاما خارجها • ولكن الساعاتى ، لا يعرف شيئا عن البحث أو فريد أو الوزارة ، فما الذى يمكن ان يكون هاما فى زيارته ؟••

ودخلت المعمل ، وارتدت الفوطة البيضاء ، ورصّت زجاجات الأملاح والأحماض فوق المنضدة ، واشعلت الموقد ، وضغطت على الماسك المعدنى لتمسك انبوبة الاختبار ، لكنها لم تمسكها ، وتركتها فى الحامل الخشبى ، منتصبة ، تفتح فوهتها الفارغة للهواء •

وظلت تحملق فى الأنبوبة الفـــارغة لحظات ، ثم جلست وأمسكت رأسها بيديها • من اين تبدأ •• انهـــا لا تعرف •• ! لا تعرف •• ! الكيمياء تبـــخرت من عقلهـــا • الأفـكار الـكثيرة كانت تتزاحم فى رأسها وهى تقرأ ، أو وهى تجرى التجارب فى معمل الكلية ، أو وهى سائرة فى الشارع أو نائمة ، كل تلك الافكار اين راحت •• كانت فى رأسها ! نعم كانت موجودة ، وكانت تحس حركتها وتسمع اصواتها ، وحوار طويل كان يدور بينهما ، وينتهى بنتائج تندهش لها •

كثيرا ما وصلت الى فكرة جديدة ، كادت تجن لها فرحا • نعم كادت تجن ، وتتلفت حولها فى دهشة ، وترى الناس تسير وكأنها كائنات من غير نوعها • وهى •• ! هى شىء آخر ! •• فى رأسها شىء ليس فى رأس أحد ، شىء سيبهر العلماء ، شىء يمكن أن يغير العالم • وتكاد تدهمها عربة أو اتوبيس فتصعد الى الرصيف فى خوف ، وتمشى بجوار الحائط فى حذر • حياتها يمكن أن تضيع تحت اى عجلات وتضيع معها الفكرة الجديدة الى الابد • وتسرع الخطا ، انها تريد أن تبلغ الفكرة الى العالم قبل ان يحدث لها شىء • وتكاد تجرى ، بل انها تجرى فعـــلا ، وتلهث ثم تتوقف وتتلفت حولها • الى اين •• الى أين هى تجرى •• وتكتشف فجأة انهـــا لا تعرف ! لا تعرف ! ••

واطفأت الموقد ، وخلعت الفوطة البيضاء ، وخرجت الى الشارع حركة الذراعين والساقين تريحها ، تخفف من الضغط داخل رأسها، تنفس عن تلك الطاقة الحبيسة فى أعماقها • ولمحت تليفونا داخل محل • فتوقفت فجأة • لماذا لا توضع التليفونات فى أماكن خفية ؟ لماذا يعرضونها هكذا أمام عيون الناس ؟ •• لو لم تر هذا التليفون لما تذكرت • ومدت يدها ورفعت السماعة ، ووضعت اصبعها فى الثقب وأدارت القرص الخمس الدورات • ودوى الجرس فى اذنها حادا عاليا لا ينقطع • ووضعت السماعة بهدوء وسارت بضع خطوات ثم وقفت فجأة وهى تقول لنفسها : أهو فريد ؟•• أغياب فـريد هو السبب ؟ •• لماذا أصبح كل شىء متغيرا ؟ •• لماذا أصبح كل شىء غير محتمل ؟ •• كان فريد موجودا وكانت حياتها هى حياتها• ولكن فريد كان يجعل كل شىء محتملا • كانت تنظر فى عينيــه البنيتين اللامعتين فتحس ان كل شىء فى الدنيا لم تعد له قيمته • الوزارة تصبح مبنى صغيرا مهجورا ، والبحث يصبح وهما صغيرا

من اوهام الفراغ • والاكتشاف •• نعم الاكتشاف أيضا يصبح حلما باهتا من احلام الطفولة

كان فريد يمتص آلامها وأحلامها وتصبح معه بغير آلام وبغير أحلام • تصبح معه فؤادة أخرى غير التى ولدتها أمها • فؤادة بغير ماض أو مســـتقبل • فؤادة التى تعيش لحظتها ويصبح هو كل لحظتها •

كيف أصبح كل لحظتها ؟•• كيف أصبح رجل كل حياتها ؟•• كيف ابتلع شخص كل اهتمامها ؟•• انها لم تعرف كيف حدث هذا• فهى ليست امرأة من ذلك النوع • الذى يهب حيـاته لأحد • ان حياتها اكبر من ان توهب لرجل واحد وحياتها فوق ذلك ليست ملكا لها • انها ملك العالم الذى تريد أن تغيّره •

وتلفتت حولها فى قلق • حياتها ملك العالم الذى تريد أن تغيره •• ورأت الناس تسيربسرعة ، والعـربات تنطلق مسرعة ، وكل شىء فى العـالم يجرى بغير توقف • هى فقط التى تقف • وقوفها لا يعنى شيئا لتلك الحركة المسرعة المتدفقة • وماذا يعنى وقوفها ؟•• ماذا تفعل قطرة فى بحر ؟•• أهى قطرة فى بحر ؟•• أهى قطرة ؟•• نعم ، هى قطرة ، وهـا هـو البحر من حولهـــا تتلاطم أمواجه وتتصارع وتتسابق • ايمكن للقطرة أن تغلب الموج؟ ايمكن لقطرة أن تغير البحر ؟ •• لماذا عاشت هذا الوهم ؟

وابتلعت لعابا مرا ، وانكمشت داخل معطفها ، وســـارت ساهمة مطرقة حتى وصلت الى بيتها ، فدخلت والقت نفسها فوق السرير بملابسها •

* * *

فتحت عينها ونظرت فى الساعة ، كانت السـابعة • فردت ساقيها تحت الغطاء فشعرت بآلام فى مفاصلها •• اغمضت عينيها

لتنام مرة أخرى لـــكنها لم تنم • كانت قـــد نامت أربـع ساعات متصلة • ولم يســبق لهـا أن نامت أربـع ســاعات متصلة في النهار • وتذكرت فجأة أنها لم تكن متصلة ، لقـــد صحت مرة وكانت الساعة الخامسة • ولم تكن نسيت أن موعد الساعاتي في السادسة • لكنها أغمضت عينيها وهي تقول لنفسها : لا زال امامي ساعة كاملة • وصحت مرة أخرى في السادسة الا ربعا •• وحركت ذراعها لتكشف عنها الغطاء وتنهض لكنها شدت الغطاء فوق رأسها وهمست لنفسها •• ماذا يحدث لو تأخرت قليلا •• ولم تفتح عينيها بعد ذلك الا في الساعة السابعة •

بقيت تحت الغطاء تتمطى وتتخيل منظر الســاعاتي بجثته الضخمة وساقيه الرفيعتين وهو واقف أمام باب المعمل ، ضاغط على الجرس ، ولا أحـــد يرد • كانت تحس بسرور خفي ، فقـد خلصها النوم من الساعاتي الى الأبد •

وملأها هذا الاحساس بالنشــاط فاختفت آلام المفاصــل ونهضت وارتدت ملابســها وخرجت • وبينما هي تهبط السلم ، رأت أمها تفتحشراعة الباب ، وبدا وجهها الشاحب بخطوط تجاعيده الرأسية والأفقية والمائلة ، من خلف القضبان الحديدية الرفيعة ، كصفحة كتاب شطبت وشطبت عشرات المرات • وسمعت صوتها الواهن يقول : ذاهبة الى المعمل ؟ •• وقالت : نعم • وسألت : هل ســتتأخرين ؟ •• وردت في شرود : لا أعـلم • ورغبت في أن تسألها شيئا ، لكنها نظرت اليها في صمت ثم هبطت السلم وخرجت الى الشارع ••

كان الهواء باردا ثقيلا ، وظلام الليل الكثيف يزيد من ثقل الهواء وكثافته • وسارت في الشـارع بخطوات بطيئة حـذرة •

كأنما ستصطدم بشيء ، وكأنما الظلام تكثف فى بعض أجزائه فأصبح أجساما صلبة يمكن أن تصطدم بها • وأسرعت الخطا لتخرج من شارعهم المظلم ، وسارت بحذاء المشتبل ، وامتلأ أنفها برائحة الياسمين فانقبض قلبها • لماذا تبقى رائحته فى أنفها ؟•• لماذا يبقى ملمس شفتيه على عنقها ؟ • لماذا يبقى طعم قبلته فى فمها ؟•• لماذا تبقى هذه الأشياء معها ، فى حين أنه اختفى ؟ •• اختفى بلحمه ودمه ورائحته وشفتيه • اختفى بكل شيء فيه فلماذا يبقى أى شيء منه ؟ ••

ولكن ، هل بقي شيء منه ؟ •• ألا تكون تلك الرائحة هى رائحتها ، وذلك الملمس هو جلدها ؟ وذلك الطعم هو لعابها ؟ •• لماذا تبدو أشياؤهما مختلطة وممتزجة الى هذا الحد ؟•• أيمكن أن يكون هو جزءا منها ؟•• أو تكون هى جزءا منه ؟•• وتحسست رأسها وأطرافها • أى جزء يمكن أن يكون ؟ •• وتحسست كتفيها وصدرها وبطنها ، لكنها تنبهت فجأة الى انها تسير فى الشارع الواسع المضيء ، ونظرات كثيرة تصوب نحوها ، فأسرعت الخطا الى محطة الأتوبيس •

ركبت الأتوبيس الى ميدان التحرير ، وسارت فى اتجاه شارع قصر النيل • ورأت العمارة من بعيد فشعرت بالكتلة الصلبة تتحرك فى قلبها • المعمل أيضا أصبح شيئا مقبضا • تلك الأنبوبة الفارغة التى تفتح فوهتها للهواء وجدرانها الزجاجية الشفافة تكشف قاعها الخاوى • منتصبة.هناك فى حاملها الخشبى ، تؤكد وجودها بغير محتوى •

وفتحت باب المعمل ودخلت • ولمحت فوق الأرض ورقة صغيرة فالتقطتها وقرأت الكلمات الصغيرة المنمقة : مررت فى السادسة ولم أجدك • سأمر فى التاسعة • الساعاتى • ونظرت

العقيم ٠٠ ! تزوجني منذ عشر سنوات ولا زلت عذراء ٠ انه ليس رجلا ! ٠٠ انه لا يعرف فى الظلام مؤخرتى من رأسى ! ٠٠ وانقض عليها الرجل كالوحش، وراح يضربها بيديه وقدميه ورأسه ، فأخذت المرأة تضربه بكل قوتها ، وابتعدت عنهما فؤادة فى ذعر وهى تتمتم لنفسـها : مجنون ! سيقتل المرأة فى معملى ! ٠٠ ماذا أفعل ؟ ٠٠ واتجهت الى الباب مسرعة ، وخرجت الى الممر لتنادي أحدا ، ورأت باب المصعد يفتح فجأة ، ويخرج منه الساعاتى ٠

وقالت فى اضطراب : الرجل يضرب المرأة ٠ ودوت صرخة عالية في تلك اللحظة فأسرع الساعاتى الى المعمل ٠ كانت المرأة راقدة فوق الأرض والرجل يضربها فى بطنها بحذائه ، وأمسكه الساعاتى بيد واحدة ، وصفعه باليد الأخرى عدة صفعات على وجهه وألقى به هو والمرأة خارج الشقة وأغلق الباب ٠

وقفت فؤادة جامدة في وسط الصالة ، تسمع صوتهما العالى وهما يتناحران على السلم ٠ وسارت لتفتح الباب وترى ماذا يفعل الرجل بالمرأة ٠ لكن صوتهما انقطع وأصبح الممر هادئا ٠ وذهبت الى النافذة لتطل عليهما وهما يخرجان من العمارة وكانت تظن أن المرأة لن تخرج منتصبة على قدميها ٠ لكنها دهشت حين رأت الرجل يخرج ومن ورائه المرأة ، كانت تسير مطرقة هادئة ، الهدوء نفسه الذى كانت عليه قبل الحادثة ٠ وظلت فؤادة تحملق فيها حتى اختفت عن عينيها ، فتركت النافذة وجلست على أحـــد الكراسى شاردة ٠

كان الساعاتى يتأملها طول الوقت ولما رآها تجلس جلس هو الآخر على كرسى غير بعيد عنها ٠ وقال وهو يبتسم : يبدو انك تتألمين من أجل المرأة ٠ وتنهدت وقالت : انها بائسة ٠ وتذبذبت العينان الجاحظتان وهو يقول : ما أكثر البؤساء الذين سترينهم هنا

في معملك • ولكنك لن تستطيعي أن تفعلي لهم شيئا • ورفع أصبعه الى فوق قائلا : لهم رب ! •• وردت قائلة بشيء من الضيق : أوجد الرب ليمسح الناس فيه أخطاءهم ؟ ••

لم تعرف كيف قالت هذه الجملة ، فهي ليست جملتها • انها جملة فريد • كانت تسمعها منه كثيرا • وذكرتها الجملة بفريد فغاص قلبها فى أعماقها ككتلة صلبة مصمتة • وأطرقت صامتة واجمة • وسمعت الساعاتي يقول : يبدو انك تأثرت من منظر المرأة • ولم ترد وظلت مطرقة • ونهض وسار بضع خطوات مقتربا منهـا ثم قال : قلبك طيب مع كل الناس ••• وسكت لحظة ثم أكمل بصوت مضطرب : الا أنا •

ورفعت اليه عينيها فى دهشة ، فابتسم فى حرج وقال : لماذا أخلفت موعدك معى ؟ •• كنت مشغولة ؟ أم ان هذه هى طبيعة كل النساء ؟ •• وارتطمت « كل النساء » بأذنها فشعرت بغضب وقالت بسرعة : أنا لست ككل النساء ! فقال كمن يعتذر : أعرف انك لست ككل النساء • أعرف هذا جيدا ، وربما أعرفه أكثر من اللازم •

وفتحت فمها لتسأله وكيف عرفت ولكنها أطبقت شفتيها فى صمت • ومرت فترة صمت طويلة ثم وجدت نفسها تقول : ماهو الأمر الهام ؟ •• وقال وهو يجلس : قابلت صدفة بالأمس وكيل وزارة الكيمياء فى حفل عشـاء • انه صديقى منـذ سنين طويلة وتذكرت أنك تعملين فى وزارة الكيمياء ، فسألته عنك • وقالت : انه لا يعرفنى • وقال باسما : انه يعرفك جيدا • لقد وصفك لى وصفا دقيقا • وقالت فى دهشة : شيء غريب • وقال : الغريب انه لا يعرفك • وقالت : لماذا ؟ • وقال : انه رجل يتذوق الجمال •

ونظرت فى عينيـه البارزتين فى غضب وقالت : أهـذا هو

الموضوع الهام ؟ •• وقال : لا • ولكنى حين سألته عنك قال لى انك موظفة ممتازة وتقاريرك ممتازة جدا • وابتسمت فى سخرية • وقال : وخطرت لى فكرة وهو يتكلم عنك بهذا الحماس • أنا فى الهيئة فى أشد الحاجة الى باحثة كيميائية • وقالت : ماذا تعنى ؟ •• قال : أعنى أن أنقلك عندى فى الهيئـة • وقالت : عندك ! •• وأكمل كلامه قائلا : لن يكون العمل كثيرا كما هو فى الوزارة •• لن تفعلى شيئا على الاطلاق ، فالهيئة ليس بهـا معمل كيماوى • ونظرت اليه بدهشة وقالت : ولماذا أذهب اذن ؟ •• وابتسـم ، فقفزت شفته العليا كاشفة عن أسنانه الصفراء وقال : ستكونين فى مكتبى •

ونهضت واقفة • كان رأسها قد سخن • ونظرت فى عينيه المهزوزتين نظرة ثابتة وقالت : أنا لست من هذا النوع يا أستاذ ساعاتى •• ! اننى أريد أن أعمـل •• ! أريد أن أقوم بأبحـاث كيماوية ! •• اننى أدفع عمرى من أجل أن أعمل بحثا. وسكتت لحظة وابتلعت ريقها ، وقالت : اننى أكره الوزارة ! أمقتها ! لأننى لا أعمل فيها شيئا. لا أدرى كيف تكون تقاريرى ممتازة وأنا لم أعمل شيئا منذ ست سنوات ؟ •• لن أذهب الى الهيئة ، ولن أذهب الى الوزارة • سأقدم استقالتى وأتفرغ لمعملى •

وطفت فوق عينيه سحابة خفيفة وأطرق الى الأرض • وسادت فترة صمت طويلة • كانت فؤادة قد نهضت وسارت الى النـافذة ثم عادت فجلسـت على طرف الكرسى وكأنما ستنهض ثانيـا • واختلس نظرة طويلة اليها من تحت نظـارته السـميكة •• كانت هناك عضـلة صغيرة ترتجف تحت عينها اليمنى • وقال بصـوت منخفض : أنا لا أفهمك فى هذه اللحظات التى تثورين فيها • عيناك تمتلئان بحزن دفين • انك تنطوين فى أعماقك على ألم لا أعـرفـه سببه الحقيقى • وأنت صغيرة السن على أن تحملى بين جنبيك كل هذه

المرارة • ولكن يبدو انك مررت بتجربة قاسية فى حياتك • والحياة يا فؤادة لا تحتمل كل هذا الجد • لماذا لا تأخذين الحياة كما هى ؟ ••

واقترب منها وهى جالسة وأحست يده الطرية السمينة فوق كتفها فانتفضت واقفة ، وسارت الى النافذة • وسار وراءها وهو يقول : لماذا تضيعين شبابك فى هذه الأوهام ؟••• أنظرى • وأشار لها الى الشارع • أنظرى كيف يستمتع الشباب مثلك بحياته ••• وأنت •• أنت هنا فى المعمل غارقة فى عمل تحليلات وأبحاث •• عن أى شىء تبحثين ؟ •• هل هناك شىء تريدينه ليس موجودا فى كل هذه الدنيا ؟!

ومدت بصرها الى الشارع • كانت الأنوار والناس والعربات تموج بحركة حية مرحة • لكنها حركة بعيدة عنها ، حركة منفصلة عنها ، كحركة الصور المتحركة على شاشة السينما ، تحكى حياة أخرى غير حياتها ، وقصة أخرى غير قصتها ، وشخصيات أخرى غير شخصيتها • وهى وحدها ، وحدها داخل تلك الدائرة الضيقة التى تلتف حولها ، والتى تضيق كثيرا لتصبح حدود جسمها •

وسمعت صوت الساعاتى يقول وكأنه يأتى من بعيد : يبدو انك متعبة • اخلعي هذه الفوطة البيضاء وتعالى نخرج لنشم الهواء • ونظر فى ساعته ثم قال : عندى اجتماع الليلة فى المجلس السياسى ولكنى لن أذهب • هذه الاجتماعات السياسية مملة جدا • لا أدرى كيف أتكلم فيها كل هذا الكلام ، وفى كل مرة أقول الكلام نفسه •

وتذكرت فجأة الموضوع الصحفى الذى قرأته مرارا ، وصورته التى نشرت كثيرا وقالت : يبدو ان لك نشاطا سياسيا واسعا • وقال : لماذا ؟ •• قالت : يخيل الى أننى قرأت كثيرا عن هذا النشاط • وضحك ضحكة قصيرة اهتزت لها نظارته السميكة وقال : أتقصدين ما يكتب فى الصحف ؟ •• يخيل الى ان الناس

لم تعد تصدق شيئا مما يكتب • أنهم يقرون الصحف بحكم العادة وليس لسبب آخر • هل تقرئين الصحف كل يوم ؟ ••

وقالت : أقرؤها ولا أقرؤها • وابتسم وظهرت أسنانه ككل مرة وقال : وماذا تقرئين فعلا ؟ •• قالت وهى تتنهد : الكيمياء • وقال : تتكلمين عن الكيمياء وكأنك تتكلمين عن رجل تحبينه •• هل أحببت رجلا مرة ؟••

وكأنما سكب فوق رأسها ماء باردا فأفاقت لتجد نفسها واقفة فى النافذة والى جوارها الساعاتى • واستدارت بسرعة فوجدت المعمل خاليا صامتا • ونظرت فى الساعة : كانت الحادية عشرة • كيف حدث هذا ؟•• ألم تحاول الهرب من المعمل قبل أن يأتى ؟•• وتذكرت حادثة الرجل والمرأة • ولكن ألم يكن فى استطاعتها أن تنزل من المعمل مباشرة ؟ •• واختلست نظرة الى الساعاتى • كان متكئا على النافذة بنصفه الأعلى الكروى الضخم يتدلى من تحته ساقاه الرفيعتان كساقي النعامة • وكانت عيناه تتذبذبان من تحت الزجاج السميك وفيهما تلك النظرة الضفدعية الجاحظة • وخيل اليها انها أمام نوع غريب من الزواحف البرية غير المستأنسة • وتلفتت حولها فى شىء من الخوف • وقالت وهى تخلع الفوطة البيضاء وتتجه الى الباب : يجب أن أعود الى البيت فورا •

ونظر اليها فى دهشة ثم قال : كنا نتكلم فى هدوء فما الذى حدث ؟ •• هل ضايقك سؤالى ؟ •• وقالت : لا لا ، لم يضايقنى شىء ، ولكن أمى وحدها فى البيت ولابد أن أعود فورا • وقال وهو يسير معها الى الباب : يمكننى أن أوصلك بعربتى • وفتحت الباب وهى تقول : أشكرك • سآخذ الأتوبيس • وقال : الأتوبيس ••• فى هذا الوقت المتأخر ؟ •• لا يمكن ••• ! وهبطا الى الدور الأرضى • وسبقها الى عربة زرقاء طويلة وفتح لها الباب • ورأت

البواب ينتصب واقفا فى احترام • ووقفت لحظة مترددة • كانت تريد أن تهرب • لكنها لم تعرف • كان الباب مفتوحا ، والرجلان واقفان ينتظران دخولها ، فدخلت واغلق الساعاتى الباب ، ثم أسرع الى الناحية الأخرى من العربة وفتح بابها وجلس وأدار المحرك •

كان الشارع خاليا الا من عدد قليل من الناس والعربات ، وكان الهواء باردا رطبا • ورأت رجلا يقف أمام كشك سجائر • وارتعدت فجأة وكادت تصيح : فريد ! •• لكن الرجل استدار ورأت وجهه • لم يكن فريدا • وانكمشت داخل المعطف ترتجف ببرودة مفاجئة • ونظر اليها الساعاتي وقال : هل رأيت أحدا تعرفينه ••• وقالت بصوت خافت : لا • وسألها : أين تسكنين•• قالت : فى الدقى •• ووصفت له الشارع والبيت ••

اجتازت العربة كوبرى قصر النيل ، ورأت برج القاهرة واقفا منتصبا فى الظلام كشبح ضخم ، وعيناه الحمراوان المتوهجتان تدوران حول رأسه دورانا مستمرا • وشعرت بدوار وهى تحملق فى الكرات المتوهجة الدائرة حول نفسها وبدا لها البرج برجين اثنين وله رأسان يدوران • ودعكت عينيها بيديها فاختفى البرج الثانى وبقي برج واحد له رأس واحد يدور ، ثم ظهر البرج الثانى، ودعكت عينيها ليختفى البرج الثانى لكنه لم يختف • ونظرت الى الساعاتى بطرف عينها ورأت له رأسين وأربع عيون جاحظة وارتعدت وأخفت وجهها بيديها •

وسمعت صوته يقول : انت متعبة ••• وقالت وهى ترفع رأسها : أشعر بصداع • ونظرت من خلال النافذة • كان الظلام كثيفا فلم تر الا كتلا من السواد وتذكرت فجأة قصة قرأتها عن رجل شاذ كان يتصيد النساء ويذهب بهن الى مكان مظلم بعيد ويذبحهن • واختلست نظرة حذرة الى الساعاتى • كان جالسا

وعيناه الجاحظتان تنظران الى الأمام ، ورقبته المكتنزة باللحم تستند الى الكرسى ، وركبتــاه الرفيعتان مدببتان ٠ والتفت ناحيتهــا ، فنظرت من النافذة ٠ كانت البيوت مغلقة بالشيش ومظلمة ٠ لانور يظهر فى نافذة ولا أحد يسير فى الشارع ٠

لماذا ركبت معه العربة ؟ ٠٠ من هو ؟ ٠٠ انها لا تعرفه ٠ لا تعرف عنه شــيئا أهى صاحية أم أنها تحلم حُلما مزعجا ؟ ٠٠ وضغطت بظفرها على فخذها لتتأكد من وجودها ٠

وخيل اليها ان العربة تقف ٠ وارتعدت وهى تلتصق بالباب ٠ وسمعت صوت الساعاتى يقول : أهذا هو البيت ؟ ٠٠ ونظرت من النافذة ٠ ورأت بيتها فهتفت بدهشة : انه هو ! ٠٠ وفتحت الباب وخرجت مسرعة ٠ وخرج هو أيضا ٠ وسار معها الى الباب ٠ كان السلم غارقا فى ظلام دامس وقال لها : انت متعبة والسلم مظلم ، هل أصعد معك حتى باب الشقة ؟ ٠٠ وقالت بسرعة : لا لا أشكرك ٠ سأصعد وحدى ٠ ومد يده الطرية وهو يقول : هل أراك غدا ؟ ٠٠ وقالت فى اضطراب : لا أدرى ٠ لا أعلم ٠ ربما لا أخرج غدا ٠ وبرقت عيناه البارزتان فى الظلام وقال : انت متعبة ٠ سأسأل عنــك بالتليفون ٠٠ وابتسم : لا ترهقى نفســك فى الأبحاث الـكيميائية !٠٠

وصعدت السلم بقدمين مرتجفتين ٠ وخيل اليها انه سيصعد وراءها ٠ كثير من الجرائم تقع على سلم مظلم ٠ ووصلت الى باب الشقة وهى تلهث ٠ وأخرجت المفتاح وارتجفت أصابعها وهى تبحث عن الثقب ٠ وفتحت الباب ودخلت وأغلقت الباب خلفها بسرعة ٠٠ وسمعت صوت أنفاس أمها العالية المنتظمة فشعرت ببعض الهدوء ٠ لكنها كانت لا تزال تنتفض من البرد ٠ وارتدت ملابس صــوفية ثقيلة ودست نفسها فى الفراش وأسنانها تصطك وأغمضت عينيها وغابت عن الوعى ٠

***

فتحت عينيها فى الصباح على صوت أمها • كانت تقول لها شيئا لم تسمعه • ورأت عينى أمها الواسعتين الصفراوين تنظران اليها فى قلق • وحاولت أن ترفع رأسها من فوق الوسادة فلم تستطع • كان رأسها ثقيلا ترتج داخله كتلة صلبه وترتطم بعظام رأسها محدثة صوتا • كأنما تجمد مخها وأصبح مادة معدنية • ودارت عيناها فى الغرفة • ورأت الدولاب والنافذة والشماعة والتليفون فوق الرف • وفتحت فمها لتقول شيئا لكنها أحست بألم حاد فى حلقها • ورأت وجه أمها المجعد يقترب منها وسمعتها تقول : هل تريدين التليفون ؟ •• وهزت رأسها وخرج صوتها مبحوحا : لا لا • خذيه الى الصالة • لا أريده هنا ! •• وحملت أمها التليفون فوق صدرها وكأنها تحمل قطا أسود ميتا • وسمعت صوت قدميها تزحفان الى الصالة ثم تعودان الى حجرتها •

وأخفت رأسها تحت الغطاء • وسمعت صوت أمها يقول : سمعتك تسعلين بالليل،هل أخذت بردا ؟ •• وردت من تحت الغطاء : يبدو ذلك يا ماما • وحركت لسانها الجاف فى فمها فأحست بمرارة تهبط الى جوفها • ورغبت فى البصق وأخرجت المنديل من تحت الوسادة وبصقت • ومسحت أنفها الذى كان يرشح • وأحست بشىء صلب كالحصوة يحتك بحلقها • وراحت تعطس وتسعل لكن الحصوة لم تطرد • كانت تزحف ببطء مع الهواء داخل صدرها •

وسمعت أمها تقول شيئا فقالت : نعم دون أن تعرف ماذا كانت تقول ، وسمعت القدمين تزحفان خارج الغرفة وصنعت لأنفها فتحة صغيرة بين السرير والغطاء ليدخل منها الهواء • لكن الضوء دخل أيضا ورأت يدها تحت رأسها • وحول معصمها كانت تلتف الساعة • والتقطت عيناها الرقم الذى يشير الى العقرب الصغير وتذكرت الوزارة • وسدت فتحة الضوء فعاد الليل مرة أخرى •

نعم ، ليعد الليل ويبق • وليختف الضوء من حولها ولا يكن هناك نهار أبداء فما فائدة النهار ؟ •• تلك الحركة الدائرية من البيت الى الوزارة ومن الوزارة الى المعمل ومن المعمل الى البيت • ما جدوى هذه الحركة ؟•• ما جدوى الدوران فى تلك الحلقة المفرغة ؟ •• تحريك عضلات الذراعين والساقين ؟ •• تنشيط الهضم ودورة الدم ؟ •• وتذكرت صوت الساعاتي : عن أى شيء تبحثين ••• هل هناك شيء تريدينه ليس موجودا فى كل هذه الدنيا ؟ •• انها لا تريد شيئا من كل هذه الدنيا • لا تريد أن تأخذ شيئا منها • لا تريد مالا وماذا تفعل بالمال ؟ •• ماذا تفعل المرأة بالمال في هذه الدنيا ؟•• تشترى فساتين غالية كثيرة ؟•• ولكن ما فائدة الفساتين الغالية ؟ •• انها لا تذكر شكل فساتينها • لا تذكر ان (فريد) نظر الى فستانها مرة واحدة • لم تحس يوما ان فستانها له قيمة ما سوى انه يغطي أجزاء من جسمها •

وماذا غير الفساتين ؟ •• ماذا تفعل امرأة بالمال فى هذه الدنيا غير شراء الفساتين ؟ •• تشترى أدوات الزينة وعلب البودرة ؟ •• ذلك المسحوق الأبيض الذى تدهن به المرأة وجهها وتخفي تلك الشعيرات الدموية التى تجري فى البشرة الحية ؟ • وماذا يبقى للبشرة الحية بعد أن يختفي منها لون الدم ؟•• ذلك الجلد المعتم الميت ؟ •• ذلك اللون الجيرى الأبيض كلون حذاء الكاوتش •

وماذا غير شراء المساحيق والفساتين ؟ •• ماذا تريد امرأة من هذه الدنيا ؟ •• الذهاب الى السينما ؟•• زيارة الصديقات ؟•• النميمة والغيرة والسعي من أجل الزواج ؟••

ولكنها لا تريد شيئا من هذا • انها لا تشتري مساحيق ، ولا تذهب الى السينما ، وليس لها صديقات ولا تسعى وراء زواج• فما الذى تريده ؟ ••

وضغطت برأسها فوق الوسادة وجزت على أسنانها فى غيظ: ماذا أريد ؟٠٠ ماذا أريد ؟٠٠ لماذا لا أريد تلك الأشياء التى تريدها النساء ٠٠ ألست امرأة مثلهن ٠٠ ؟!

ورفعت الغطاء قليلا عن وجهها ليدخل الهواء ، ورأت أصابعها الرفيعة وأظافرها ٠ أصابع وأظافر امرأة ٠ وتحسست بشرتها وجسمها ٠ بشرة امرأة وجسم امرأة ٠ انها امرأة فعلا ٠ فلماذا لا تريد ما تريده النساء ؟ ٠٠ لماذا ؟ ٠٠

نعم ، لماذا ٠٠ لماذا ٠٠ انها لا تعرف ٠ أتكون الكيمياء هى السبب ؟ ٠٠ ولكن أهى الوحيدة التى درست الكيمياء ؟ أتكون مدام كورى هى السبب ؟ ٠٠ ولكن أهى الوحيدة التى سمعت عن مدام كورى ؟٠٠ أتكون مدرّسة الكيمياء ؟٠٠ ولكن أين هى مدرّسة الكيمياء ؟ ٠٠ انها لا تعرف عنها شيئا ٠ انها لم تسمع عنها شيئا منذ تركت المدرسة ٠ أتعلق حياتها على كلمة قالتها امرأة مغمورة؟٠٠ أتكون أمها ؟ ٠٠ ولكن أتعرف أمها شيئا عن العالم الواسع خارج جدران البيت ؟ ٠٠ أيكون فريد ؟ ٠٠ ولكن أين هو فريد ؟ ٠٠ من هو ؟٠٠ انها لا تعرف أحدا يعرفه ، ولا تعرف أين هو ، ولا تعرف أكان موجودا حقا فى يوم من الأيام ٠ ربما كان وهما ، ربما كان حلما ٠ انه غائب ٠ ومادام غائبا فكيف اذن تفرق بين الحلم والحقيقة ؟ ٠٠ لو ترك ورقة صغيرة بخط يده لاستطاعت أن تعرف٠ نعم ، ورقة صغيرة تستطيع ، أما هى برأسها وذراعيها وساقيها فلا تستطيع شيئا ٠ لا يستطيع جسمها شيئا ، ولا رأسها أيضا ٠ كل شىء يتحول داخل رأسها الى طنين أخرس ٠ كل شىء ينسحق داخلها الى صفير حاد مستمر كذلك الصفير الذى يدوى حين تصمت كل الأشياء ٠

نعم ، انه الصمت المطبق فى أعماق ذلك الجسد الممدود فى عجز تحت الغطاء ٠ الصمت ولا شىء غير الصمت ٠ انه عاجز عن أن

يقول شيئا · تلك الكلمات التي تخرج من بين شفتيه ليست كلماته · انها أصداء متناثرة لكلمات سمعها من قبل · كلمات قالها فريد ، أو أمها ، أو مدرسة الكيمياء ، أو كلمات قرأها في الكتب · نعم ، انه يردد ما سمع وما قرأ · انه قادر على الترديد فحسب كأي جدار من الحجر ·

وحركت جسمها تحت الغطاء · كان ثقيلا كأنه قد تحجّر وأحست بسخونة شديدة وعرق غزير يبلل جسمها ، وسائل دافيء لزج ينساب من أنفها ، فأخرجت المنديل من تحت الوسادة ومسحت أنفها في تقزز · أنفها يرشح كصنبور بال وجسمها ينز بالعرق · انها ليست جدارا جافا نظيفا · ولكنها جدار رشق في رأسه وبطنه بصنابير بالية ترشح من فوق ومن تحت· بلولة لاارادية مقززة ··!

ورفست الغطاء عن جسمها ·· كانت تريد أن ترفس عنها ذراعيها وساقيها ، كانت تريد أن ترفس عنها جسدها · لكنه ظل ملتصقا به ، مشدودا اليها ، جاثما فوقها بثقله الكئيب وبلونته الكريهة كشخص آخر غريب عنها ·

غريب عنها ·· ! غرابة أي شخص يقابلها صدفة في طريق، غرابة بواب العمارة ، غرابة الساعاتي ··· ! وارتعدت · نعم ، غريب كل هذه الغرابة · يبتلع الأكل في جوفه ولا تعرف ماذا يفعل به · تسمع أصواتا أحيانا في معدتها كمواء القطط كأنها لا تعرف ماذا يدور هناك · أين تذهب تلك الكميات الكبيرة من الطعام ؟ ·· كالطاحونة ··· تدور وتدور وتسحق الأشياء الصلبة· انه الدوران والسحق ولا شيء سواهما · لا شيء آخر ··

وماذا يمكن أن يكون الشيء الآخر ·· ! ذلك الوهم الذى كان يتراءى من وراء الضباب ؟ ·· أنبوبة الاختبار يتراقص من فوهتها غاز جديد ؟ ·· وماذا يفعل الغاز الجديد ؟ ·· قنبلة هيدروجينية

جديدة ؟٠٠ صاروخ له رأس نووى جديد ؟٠٠ ماذا ينقص العالم ؟٠٠
وسيلة جديدة للقتل ؟ ٠٠

ولماذا القتل ؟ ٠٠ ألا يكون شيئا آخر له فائدة ؟ ٠٠ شيئا يقضى على الجوع ؟ ٠٠ على المرض ؟ على الشقاء ؟ ٠٠ على الظلم ؟ ٠٠ على الاستغلال ؟ ٠٠ نعم نعم ٠٠٠ أيهـــا الرأس المصمت ، ردد الكلمات التى سمعتها من فريد ٠ ردد الصدى كأي جدار.ماذا تعرف انت عن الجوع ؟ ٠٠ وماذا تعرف عن المرض ؟ ٠٠ وماذا تعرف عن الشـــقاء ؟ ٠٠ وماذا تعــرف عن الظلم ٠٠ ؟ وماذا تعــرف عن الاستغلال ؟ ٠٠ ماذا تعرف عن هذه الأشياء التى تحدث للنـــاس وأنت لا تعيش مع النـــاس ؟ ٠٠٠ تنظر اليهم من بعيد وتتامل حركاتهم وسكناتهم وكأنهم صور متحركة فوق شاشة بيضاء ٠ هــل جعت.يوما ؟ ٠٠ هــل رأيت يوما انســانا جائعا ؟ ٠٠ تلك الشحاذة الجالسة على رصيف الوزارة وفى حجرها الطفل الصغير ٠٠ هل رأيتها مرة ؟٠٠ هل نظرت فى عينيها لحظة ؟٠٠ ألم تكن ترى منها الا ظهرها الذى تغرقه الشمس الدافئة وتحسدها ؟٠٠

هل عرفت شيئا من هذا أيها الرأس المصمت ؟ ٠٠لمَ الاصرار اذن على هذا الوهم ؟ ٠٠ الا تأكل وتشرب وتبول وتنام كالآخرين٠ لماذا لا تكون كالآخرين ٠٠ لماذا ؟ ٠٠

نعم ، لماذا ؟ ٠٠ لماذا ؟ ٠٠ لـماذا لا تكون كالآخرين وتستقر وتهدأ وتقبل بحياتك كما هى ؟ ٠ لماذا لا تأخذ الحياة كما هى ؟٠ وهذه الكلمات أيضا ليست كلماتك ٠ ألم تسمع هذا السؤال نفسه من الساعاتى بالأمس فى المعمل ؟٠٠ أتختزن فى جوفك كل الكلمات ؟٠٠ حتى كلمات الساعاتى ٠٠ ؟ يا لتفاهتك ! ألا تقول كلمة واحدة من عندك ؟ ٠٠

وأفاقت فؤادة على صوت أمها ٠ ورأتها تقف الى جوارها تمـــد يديها النحيلتين المعروقتين بكوب من الشاى ٠ ونظرت الى أصابعها

الرفيعة الطويلة المجعدة. أصابعها طويلة رفيعة كأصابع أمها، وسوف تصبح مجعدة كأصابعها بارزة المفاصل كعيدان الذرة الجافة • ورفعت اليها عينيها • ورأت وجهها ذا التجاعيد الكثيرة ، وشفتيها اليابستين منفرجتين • الفرجة نفسها ، والاسنان نفسها ، ولسوف تملأ التجاعيد نفسهاووجهها هى أيضا ، ولسوف تعجز قـــدماها عن المشي السريع وتزحفان مثل قدميها •

ومدت ذراعا نحيلة واهنة وأخذت منها كوب الشاى • وجلست أمها على طرف السرير تنظر اليها • لماذا هى صامتة • لماذا لا تقول شيئا •• لماذا لا ترفع يديها للسماء وتردد دعوتها القديمة •• راح الحلم وضاع الوهم • انها لم تلد فلتة من فلتات الطبيعة • من قال لها انها ستلد فلتة ؟• ولماذا هى بالذات ؟• لماذا بطنها بالذات ؟• ملايين البطون تلد كل يوم فمن الذى وضع فى رأسها ذلك الوهم ؟• ربما أمها هى التى أورثتها هذا الوهم كما ورثته فؤادة عنها • انها امرأة من العائلة تصورت بطنها غير البطون • انها واحدة التى بدأت • لابد أن تكون هناك واحدة بدأت • لا بد أن يكون هناك دائما من يبدأ •

وسمعت صوت أمها يقول فى حزن : مالك يا فؤادة •• لماذا لا تتكلمين •• كان صوتها حنونا الى حد انها رغبت فى البكاء • لكنها ابتلعت دموعها وفتحت فمها المر لتقول : عندى صداع شديد • وسألت الأم : هل آتى لك باسبرين ؟•• وهزت رأسها : نعم • وخرجت الأم الى الصالة مرة أخرى • وبينما هى فى الصالة دق جرس التليفون • وقفزت فؤادة من فوق السرير وهى ترتعد • أيكون الساعاتى ؟ ووقفت على عتبة بابها تنظر الى التليفون • واقتربت أمها من التليفون لترد لكنها صاحت : لا ترفعى السماعة يا ماما •• ! هناك شخص لا أريد أن أكلمه •• ! لكنها تذكرت فجأة أنه ربما يكون (فريد) فقفزت الى التلفون فى خطوة واحدة ورفعت السماعة وهى تلهث • ألو • وجاءها صوت الساعاتى اللزج فسقطت على الكرسى كالجثة الهامدة •

* * *



خرجت فؤادة من الوازرة ، وسارت بحذاء السـور الحديدى الصدىء ، كان رأسها ثقيلا ، وقلبها ترتج داخله الجلطة المتصلبة المزمنة • ورأت المرأة الجالسة على الرصيف ، تحتضن طفلها فى صدرها وتمد يدها الفارغة للناس • والشارع صاخب مزدحم • لا يرى الذراع الممدودة أحد ، وقد يدفعها واحد بعيدا ليفسح الطريق أو يدوسها آخر وهو مسرع • وسمعت بكاء الطفل وهى تمر بجانبها • ورأت هيكلا صغيرا له عينان غائرتان وخدان بارزان وفم صغير مدبب ، يحاول دون جدوى أن يمص قطعة جلد أسمر مجعد تتدلى من صدرها •

ووضعت يدها فى جيبها لتخرج قرشا ، لكن يدها بقيت داخل جيبها • ورفعت عينيها الى الشارع • كانت العربات الطويلة تجرى الواحدة وراء الأخرى ، وفى كل عربة منها رأس لامع يعكس الضوء ، ورقبة مكتنزة باللحم تشبه رقبة الساعاتى •

وأخرجت القرش وأمسكته فى يدها لحظة • ماذا يفعل القرش؟ هل يكسو عظام الهيكل الصـغير باللحم ؟ •• هل يدر اللبن فى تلك القطعة المتدلية من الجلد ؟ وعضت بأسنانها على شفتها • ماذا

يمكن أن تفعل ؟ •• اكتشاف كيمائى يقضى على الجوع ؟ •• غاز جديد يتنفسه الملايين بدل الأكل ؟

وتركت القرش يقع من بين أصابعها فى الكف الفارغة الممدودة، لن يفعل القرش شيئا ، ولكن ليكن صدقة عابرة ترضى بها ضميرها ليكن ثمنا بخسا تدفعه وتنسى •

انها كلمات فريد تعود • وصوته فى رأسها له دبيب • وعيناها تبحثان عن عينيه البنيّتين اللامعتين • عيون كثيرة من حُولها فلماذا عينيه بالذات ؟ • حين كانت تنظر فى عينيه من قرب لم تكن تشعر بذلك الاستغراب • وهى تستغرب منظر العيون عن قرب ، حتى عينى أمها ، بل حتى عينيها هى نفسها ، حين كانت تقربهما من المرآة يختفى الشكل المألوف ، كأنهما عينا حيوان غير أليف • لكن عيني فريد كان فيهما شيء غريب • شيء قريب • يقترب ويقترب ولا يبدو غريبا ، وحين تتلاشى المسافة بينها وبينه ويتلامسان تحس بأمان شديد •

أيكون ذلك كله وهما ؟ •• أتخدعها أحاسيسها الى هذا الحد ؟ •• واذا كذبت أحاسيسها فأى شيء تصدق ؟ •• كلمات من حبر على ورق •• خطابا رسميا عليه ختم الوزارة ، شهادة بصم عليهـــا اثنان ؟ •• أى شيء تصدق اذا كذبت احاسيسها ؟•

وتوقفت فجأة لتسأل : ولكن ما هى الاحاسيس ؟ •• أيمكن أن تلمسها ؟ •• أيمكن أن تراها ؟ •• أيمكن أن تشمها ؟ •• أيمكن أن تضعها فى أنبوبة اختبار وتحللها •• احاســـيس •• مجرد أحاسيس •• حركة غير مرئية تحدث فى رأسها ، كالاوهام ، كالاحلام كالقوى الخفية • أيؤمن عقلها الكيمائى بهذه الخزعبلات ؟ ••

وتلفتت حولها كالتائهة • هل الاحاسيس خرافة أم حقيقة ؟ لماذا تنظر فى عينى فريد فتحس انه قـــريب ، وتنظر فى عينى

الساعاتي فتحس انه لص • أهى وهم أم عـــلم ؟ •• أهى حركة عشواء فى أعصاب العين أم حركة واعية فى خلايا المخ •• وكيف تفرق بينهما ؟ •• كيف تفرق بين ذبذبة خاطئة لعصب مرهق وبين فكرة سليمة لخلية فى المخ ؟ •• وكيف تفكر خلية المخ ؟ •• تلك الكتلة الصغيرة من البروتوبلازم كيـــف تفكر ؟ •• من أين تأتيها الفكرة وكيف تسري فى نسيجها المادى •• كهرباء ! تفاعل كيماوى !

ورفعت رأسها لترى ما حولها • ولمحت العمارة ومن فوقها اللافتة البيضاء تحمل حروف اسمها السوداء • وانقبض قلبها • الانبوبة ذات الفوهة المفتوحة وقاع بغير محتوى • ولسان اللهب يحرق الهواء ويحترق • وذلك الصفير الحاد يدوي فى الأذنين حين تصمت كل الأشياء •

نعم ، انه المعمل • لكنه لم يعد معملا • أصبح مصيدة ، يتصيد عجزها ، يتصيد جهلها ، يتصيد الصمت واللا شيء من رأسها •

ومرت أمام باب العمارة ولم تدخل • وسارت بضع خطوات ثم توقفت • الى أين تذهب •• كل مكان أصبح كالمعمل مصيدة للعجز والصمت والصفير • البيت والوزارة والتليفون والشارع • كل شيء أصبح متشابها كأنه مترابط •

وعادت لتدخل الى العمارة ولتصعد الى المعمل • لا مفر ولا مهرب، المصيدة تفتح فكيها وهي تدخل بينهما ، وسيأتى الساعاتى بعـــد قليل ، سيأتى حتما الى المعمل أو الى أى مكان ، فقد عرف كل مكان، عرف التليفون والبيت والوزارة والمعمل ، سيأتى بعربته الطويلة الزرقاء وعينيه الجاحظتين ورقبته المكتنزة باللحم ، ســيأتى حتما فلماذا لا يختل توازن الأرض فيهتز حامل الانابيب وتســـــقط الانبوبة الفارغة وتنكسر ؟ لماذا تدور الأرض بكل هذا الاتقان •• لماذا لا يختل توازنها مرة واحدة فحسب ؟ ••

كانت قد دخلت المعمل ، وارتدت الفوطة البيضاء ، ووقفت وراء النافذة تتأمل الشارع وتراقب العربات كأنما تنتظره • كانت تنتظره فعلا • ورأت العربة الزرقاء الطويلة تقف أمام العمارة ، وخرج منها الساعاتي بنصفه الاعلى الضخم وساقيه الرفيعتين •

وسارت بخطوات ثقيلة نحو الباب • ولمحت نفسها فى المرآة الطويلة المجاورة للباب • كان وجهها قد نحل واستطال ، وعيناها غاصتا في محجريها وانطفأتا ، وفرجة فمها زادت اتساعا ، وأسنانها برزت اكثر وأكثر فكأنها أسنان أمها •

وأطبقت شفتيها لتخبيء أسنانها ، وضغطت فكها الاعلى فوق الأسفل بكل قوتها لتسحق أسنانها بينهما ، أو لتسحق شيئا آخر • لابد أن يكون هناك شيء يسحق • واصطكت أسنانها محدثة صوتا معدنيا • ودق جرس الباب • وضربت الهواء بقبضتها وقالت : لن أفتح ! •• ووقفت جامدة كالتمثال • ودق الجرس مرة أخرى فازدادت أنفاسها سرعة وأصبح صدرها يعلو ويهبط كأنما تلهث وتلفتت حولها وتصيدت الفوهة المفتوحة عينيها كالفخ ، فسارت وفتحت الباب •

* * *

كان يحمل فى يديه السمينتين علبة صغيرة • وتقلصت شفته العليا كاشفة عن أسنانه الكبيرة الصفراء وتذبذبت عيناه الجاحظتان من تحت الزجاج السميك وقال : هدية بسيطة • ووضع العلبة فوق المنضدة وجلس •

وظلت واقفة ، تنظر الى الشريط الرفيع الاخضر الملتف حول العلبة • وسمعت صوته المبتهج يقول : افتحى العلبة •• انه يوجه اليها أمرا •• انه يكتسب لنفسه حقا فى أن يأمرها • لقد دفع ثمن هذا الحق وله أن يستخدمه • ونظرت في عينيه • كانتا تتذبذبان

بدرجة أقل • كانما بدأ يثق في نفسه بعض الشيء • انه أعطاها شيئا • وانه دفع لها ثمنا • انه أصبح قادرا على أن يشتري منها شيئا ، أى شيء ، ولو ذلك الحق فى أن يأمرها بأن تفتح العلبة • وظلت واقفة لا ترد •

ونهض وفتح العلبة بنفسه • وسار اليها حيث هى واقفة وقرّب منها العلبة وهو يقول : ما رأيك فى هذا الخاتم ؟

ورأت شيئا يبرق فوق قطيفة حمراء • وقالت فى شرود وهى تنظر الى أسنانه الصفراء : أنا لا أفهم فى هذه الاشياء •

وحملق فيها مندهشا وقال : ان فيه فصا من الماس الحر ! •••

واقترب وجهه منها • ورأت عينيه الجاحظتين عن قرب يطفو فوقهما غشاء معتم يخفي ذلك البريق الطبيعى للعينين •

لعله دفع ثمنا غاليا • ربما دفع مائة جنيه أو أكثر • ولكن ما قيمة هذا عندها ؟

انها لا تستخدم هذه الأشياء • لاتلبس الخواتم أو الأساور أو العقود • انها تضيق بجلدها الذى يلتف حول جسمها فكيف تلف حول أعضائها حبلا آخر ؟•• انها تحس ثقل عضلاتها وعظامها فكيف تثقل مفاصلها بسلاسل معدنية من أى نوع كانت •• ؟

واقترب منها وهو يردد : ان فيه فصا من الماس الحر •• ! وابتسمت فى صمت • انه لن يفهم أبدا • ماس حر لن تستخدمه فى شيء ، فما الفرق بينه وبين قطعة عاج أو زجاج ؟ •• هل يفرق التراب بين أى شيء ؟

وعادت الى عينيه الذبذبة بدرجتها المعهـــودة وقال بصوت مصدوم : أى هدية يمكن أن ترضيك ؟• ولم تعرف بماذا ترد • ماذا

كان فريد يهديها ؟ • هل اشترى لها فريد هدية ؟ • انها لا تذكر. لم يكن يشترى لها شيئا • لم يكن هناك شيء قابل للشراء • وماذا كان يمكن أن يشتري ؟•• كلماته ؟•• نبرة صوته ؟•• بريق عينيه؟ دفء أنفاسه وحنان شفتيه ؟ •

ووضع يده السمينة الطرية فوق كتفها وقال : ماذا آتى به اليك لتكونى سعيدة ؟ •• وتقلصت عضلات كتفها ونفضت عنها ثقل يده • وتلفتت حولها • ماذا يمكن أن يأتى لى به •• أيمكن أن يأتى بالمحتوى الهارب من الانبوبة ؟ •• أيمكن أن يأتى بتلك الفكرة الضائعة •• أيمكن أن يقطع ذلك الصفير الأخرس غير المنقطع ؟ •• أيمكن أن ترفع السماعة يوما فينقطع الجرس ويأتيها الصوت الغائب ؟

ونظرت اليه • كان يضع العلبة فى جيبه بأصابع مرتجفة • انه لن يستطيع شيئا فماذا تقول له ؟ وسارت بضع خطوات مضطربة ثم قالت بصوت مختنق : هيا نخرج.إنى أكاد أختنق •

❋ ❋ ❋

سارت بهما السيارة الزرقاء الطويلة فى شوارع القاهرة ، وظلا صامتين حتى خرجت السيارة الى الخلاء بالقرب من الهرم ، ثم سمعته يقول بصوت غليظ : فى حياتك سر لا أفهمه ، لماذا لا تفتحين قلبك لي ؟•• ونظرت اليه نظرة خاطفة ثم مدت بصرها الى الصحراء الواسعة وقالت : لا أعرف لحياتى سرا أو معنى ، آكل وانام كأي حيوان ولا أفعل شيئا مفيدا لأحد •

وارتجت العتامة فوق عينيه الجاحظتين وقال : ألا زلت فى هذه المرحلة الاولى ؟ •• وقالت ماذا تعني؟•• قال وهو يتنهد : كنت أعيش هذه المرحلة منذ عشرين سنة • وسكت لحظة • ثم قال : ولكننى اكتشفت أن الحياة الواقعية شيء آخر •

وقالت : ما تعني ؟• وقال وهو يبتسم ابتسامة ضيقة : كانت

المبادىء الرفيعة تضعنى دائما فى صدام مع الحياة الواقعية . وقالوا عنى « غير متكيّف » .

وسألت : من هم ؟.. وقال : زملائي فى الجامعة .

وقالت : هل كنت فى الجامعة ؟.. قال : كنت مدرّساً صاحب مبدأ .

وسألت : وماذا حدث ؟.. وضحك ضحكة قصيرة ثم قال : ثم تكيّفت .. !

والتفت ناحيتها وثبتت عيناه الجاحظتان لحظة وقال : لم يكن أمامى طريق آخر .

وسألت : هل أجريت بحثا وانت فى الجامعة ؟

قال : أجريت ثلاثة وسبعين بحثا .

وصاحت فى دهشة : ثلاثة وسبعين بحثا .. كيف ؟ هذا مستحيل .

وقال وهو يمصمص شفتيه : كان شيئا بسيطا جدا . كنت أشبع اسمى فحسب .

وسألت فى ذهول : والباحث الحقيقى ؟!

قال : كان شابا صغيرا لا يزال يسعى للوصول .

وصاحت : ولكن .. لماذا لم تُجْرِ أنت بنفسك بحثاً واحداً عميقا ...

وقال فى بساطة : لم يكن ذلك ممكنا ، ثم ان الاستغراق فى أى بحث حقيقى يمتص العمر ويضيع فرص الحياة الواقعية .

وسكتت لحظة ساهمة • ونظرت فى عينيه الجاحظتين المتذبذبتين وقالت لنفسها : تماما كما أحسست أول مرة •• عينا لص ! لقد سرق ثلاثة وسبعين بحثا •

وقالت : ثم ماذا ؟•• وضحك : ثم أصبحت أستاذا كبيرا •

وقالت : ثم ماذا ؟•• وابتسم : طموح الانسان بغير حدود • اتجهت الى السياسة • قالت : وماذا تعرف فى السياسة ؟•• وقال: كل شيء • يكفى أن أصادق هذا وذاك وأردد بعض شعارات بنبرة فصيحة •

ونظرت الى رقبته المكتنزة باللحم فى تقزز وقالت : وهـــل تحترم نفسك الآن ؟ •• وقال بالصوت نفسه : كيف يحترم الانسان نفسه يا فؤادة •• احترام النفس لا يحدث فى فراغ • انه ينبع من احترام الآخرين •• وأنا ؟ •• أنا رئيس الهيئة العليا للانشـــاءات والمبانى ، ورئيس المجلس السياسي ، والصـــــحف تكتب عنى ، وأتحدث فى الراديو والتلفزيون وأعطي نصائحى للناس • العالم كله يحترمني فكيف لا أحترم نفسى •• !

وأوقف العربة الى جانب الطريق • ونظر اليها وقال : صدقينى يا فؤادة •• اننى أحترم نفسى • بل أكثر من ذلك •• اننى أصدق الاكاذيب التى أرددها أمام الناس • أنا نفسى أصبحت أصدقهـــا من كثرة ما رددتها بصوت قوي مقنع • ما هو الانسان يا فؤادة ؟ ما هو الانسان ؟ أليس مجموعة من أحاسيس ؟ •• • ما هى الاحاسيس •• أليست تلك الخبرات المتراكمة من واقع الحياة ؟ •• أكنت ألغى كل تلك الخبرات الواقعية وأدور فى فلك مبادىء ونظريات لا يمكن تطبيقها فى واقعنا؟•• أأفعل مثل ما فعله حسنين أفندى •• واسكت لحظة كأنما يستعيد ذكريات قديمة •

وواصل كلامه : حسنين افندى كان زميلى فى الجامعة · وكان يؤمن بأن فى رأسه فكرة جديدة ، وبدأ يجرى بحثا علميا · كان يشترى أنابيب الاختبار من مرتبه الصغير ، وكان يسافر هنا وهناك ليجمع المواد · ثم ماذا حدث ؟ ·· وسألت فى شرود : ماذا حدث له ؟ ···

ومصمص شفتيه وقال : سبقه زملاؤه فى تسجيل بحوث شكلية من أجل الترقية وحاربه الاساتذة الكبار لأنه رفض أن يبيع اسمه لأحد · ثم فصلوه بتهمة ملفقة ·

وهزت رأسها : لا يمكن ·· !

وقال بهدوء : قابلته منذ شهور فى الشارع · كان ينظر أمامه فى ذهول ولم يعرفنى · وابتسم كاشفا عن أسنانه الصفراء ، ورأيت طرف اصبعه يطل من حذائه · كان شيئا مؤلما جدا · هل يحترم أحد حسنين أفندى ؟ ·· وصاحت : أنا أحترمه ·

وقال بهدوء شديد : ومن أنت ؟ ·

ونظرت اليه فى غضب : أنا ؟ ·· أنا ؟ ··

وأحست أن صوتها يضيع ، وانها تختنق ، ففتحت باب العربة وخرجت الى الصحراء · وخرج الساعاتى وراءها وسمعته يقول : الحقيقة مرة يا فؤادة · ولكن يجب أن تعرفيها · كان يمكن أن أكذب عليك · ما أسهل الكذب · تعودته وخبرته · ولكنى أحبك يافؤادة وأشفق عليك من الحيرة والتمزق ·

وأمسك يدها الصغيرة النحيلة فى يده السمينة الطرية ، وهمس : أحبك · وشدت يدها وصاحت فى ضيق : دعنى ! دعنى وحدى ! لا أريد أن أسمع صوتا ·

وتركها وعاد ليجلس في العربة • وسارت وحدها في الصحراء وبدأ الصفير يدوى في أذنيها • نعم ، ليدوّ الصفير الحاد : فالصمت أفضل من ذلك الصوت • ليدوّ الجرس الاخرس الذى لا ينقطع فالجرس أفضل من تلك الكلمات • وأنت يافريد استمرّ في الغياب فماذا كنت تفعل لو أنت موجود ؟ •• ماذا كنت تفعل ؟ •• ماذا تفعل قطرة في بحر ؟ •• ماذا تفعل قطرة في بحر ؟

وفردت ذراعيها في الهواء واحتضنت الفراغ • نعم ، الفراغ أفضل ، واللاشيء أفضل • ولكن كيف تصبح لا شيء ؟ •• قدماها تنتقلان فوق الرمل ، وأنفاسها تدخل وتخرج من صدرها ، ودقات قلبها لا تزال في أذنيها •

كيف يمكن أن يتلاشى جسدها ؟ ••

وخبطت الارض بقدمها : لماذا لا أتلاشى ! •• وكتمت أنفاسها ليكف الهواء عن الدخول والخروج من صدرها • وضغطت بيدها على قلبها ليكف عن الدق •

وخيل اليها ان الهواء كف عن الدخول ، وان صدرها لم يعد يعلو ويهبط وان دقات قلبها لم تعد مسموعة في أذنيها ، وابتسمت ابتسامة راضية • انها تتلاشى • ولكنْ هناك شيء ثقيل يجثم على صدرها ، وشيء لاسع مر يحرق حلقها ، ورائحة كريهة غريبة تملأ أنفها • ويد طرية سمينة تمسك يدها • وحاولت أن تشد يدها لكنها لم تجدها • كانت قد تلاشت •

***

فتحت عينيها ورأت الدولاب والشماعة والنافذة والسقف بتلك الدائرة المشرشرة وتلفتت حولها في ذهول • انها لم تتلاش ، وهذه هى حجرتها كما كانت • وها هو رأسها الثقيل فوق الوسادة ،

وجسمها بثقله وكثافته ممدودا تحت الغطاء، وصوت القدمين الزاحفتين تقتربان من الحجرة ، والوجه الاسمر ذو التجاعيد يطل من الباب - ورأت العينين الواسعتين تنظران اليها وسمعت الصوت الواهـــن يقول : مالك يا بنتي ؟ .. مالك يا فؤادة ؟

وهزت رأسها وقالت بصوت مبحوح : لا شيء ياماما . لو كنت فقط أموت !! وعامت العينان الصفراوان في الدموع : لماذا يا فؤادة ؟ .. الموت للعجائز مثلي . كنت تكرهين سيرة الموت . فماذا حدث ؟

وهمست : فريد . وقالت الأم في فزع : من ؟.. فريد مات؟

وانتفضت في السرير : لا لا . انه غائب فقط . وسوف يعود

وأخفت وجهها تحت الغطاء ، وابتلعت لعابا غريبا على فمها ، لعابا لاسعا مرا . من أين أتى هذا اللعاب ؟. وبدأت تتذكر بشيء من الوضوح .. كانت واقفة في الصحراء تحملق في الفضاء ،وأحست بالساعاتي خلفها ، وحوط ذراعيه حول خصرها ، وأصبحت عينـاه تقتربان وتتسعان وتزدادان جحوظا . وأحست شـفتيه الباردتين فوق شفتيها ، وأسنانه الكبيرة تصطك بأسنانها . وملأ أنفها رائحة معدنية غريبة ، كرائحة الحديد الصدىء وملأ فمها لعابا مرا لاسعا .

نعم ، كانت ترى وتحس ، لكنها لم تكن رؤية واضحة ، ولم يكن احساسا أكيدا . كان كالحلم الكئيب . وحاولت أن ترفع ذراعها وتصفعه لكن ذراعها لم تكن ترتفع .

ومدت يدها من تحت الغطاء وتحسست ذراعها . كانت موجودة وحركتها فتحركت وأخرجت المنديل من تحت الوسادة وبصـــقت ثم بصقت .. لكن المرارة اللاسعة كانت ملتصقة بفمها . وخيل اليها

انها موشكة على التقيؤ ، فدفعت عنها الغطاء وسارت الى الحمام • لكن رغبة القيء لم تكن لتتحقق • ودعكت أسنانها بالفرشـــاة والمعجون ، وغرغرت فمها • وظلت المرارة ملتصقة بحلقها تهبط شيئا فشيئا الى جوفها •

وأحست يد أمها النحيلة على كتفها : ماذا حدث لفريد ؟ •• ورفعت عينيها اليها • كان فى عينى أمها نظرة غريبة فارتعدت : لا أعلم • لا أعلم • دعينى وحدى يا ماما • وسارت الى حجرتهـــا وجلست على طرف السرير تمسك رأسها بيديهـــا • ودق جرس التليفون فانتفضت • انه هو حتما • سيأتى صوته الغليظ الصدىء من خلال الاسلاك • سيأتى حتماءفلماذا لا يختل توازن الارض ويقع التليفون وينكسر •• لكن الارض تدور بغير خلل أوكلل ، والتليفون لن يقع ولن ينكسر ، وسيأتى صوته حتما من ثقوب السماعة ، كما تأتى الريح من ثقوب الباب • سيأتى حتما بغير خلل أو كلل • وستلسع مرارته حلقها وستملأ رائحته الصدئة أنفها فلماذا لا ترتدى ملابسها وتهرب ؟

ورفعت جسمها الثقيل ونهضت ، وارتدت ملابسها • ورأت عينى أمهـــا تنظران اليهـــا فى صمت ، كانت فيهما نظرة غريبة ، وتعثرت خطواتها وهى تفتح الباب ووقفت تنظر اليها لحظة ، كان يمكن أن تبقى معهـــا ، كانت تريد أن تبقى ، ولكنها فتحت الباب وخرجت •

سارت فى الشارع تجر جسمها جرا • لم تكن تفكر فى شىء. كان رأسها هادئا • ليس هدوءا بمعنى الهدوء • ولكنه كان نوعا من الشلل ، كذلك الذى يصنعه المخدر المركز بخلايا المخ •

وتركت قدميها تسيران وحدهما بغير اشراف.من رأسها • ولماذا الرأس دائما •• لماذا لايكون العقل فى الساقين؟•• الرأس لا يفعل شيئا سوى أن يحمل فوق الاكتاف ثم يحكم ويتحكم • والساقان تقومان بالعبء وتحملان الرأس والكتفين والجسم بأكمله ثم لاتحكمان أبدا • كما يحدث في الحياة • الذين يعملون يكدحون ولا يحكمون، وتبقى الرءوس محمولة فوق الأعناق تقطف الثمار وتصدر الاحكام •

كلمات فريد مرة أخرى تعود • ونبرة صوته • وحركة يديه• لا تزال باقية فى رأسها • لماذا تبقى وهو غائب ؟•• كيف تصنع تلك الحركة فى رأسها وتعود تدب من جديد ؟

وسارت بحذاء المشتل • وصعدت رائحة الياسمين الى أنفها • وعادت أنفاس فريد على وجهها برائحتها وسخونتها ، وعاد ملمس شفتيه فوق عنقها • ورفعت يدها الصفراء لتلمس وجهه لكن يدها ارتجفت فى الهواء ثم سقطت الى جوارها •

كان النيل كما كان دائما ، راقدا محنطا بجسمه الطويل ذى التجاعيد ، ينثنى بخمول كمومس عجوز ، مستسلما راضيا متكيفا، وتلفتت حولها • كان كل شيء هادئا مستسلما متكيفا • وهى •• هل يمكن أن تتكيف ؟ •• هل يمكن أن تصبح واحدة من تلك الرءوس المحنطة فى المكتب •• هل تضع اسمها فوق بحث لم تجربه كما يفعل الناجحون واللامعون ؟

وحلقت بعينيها فى السماء والارض • ماذا كانت تريد منذ البداية ؟ •• لم تكن تريد شيئا • لم تكن تريد أن تنجح أو تلمع كانت تحس فحسب ، تحس ان فيها شيئا ما ليس فى الآخرين • انها لن تعيش وتموت ويبقى العالم كما هو • كانت تحس فى رأسها حركة ، فكرة جديدة ، لا تعرف كيف تنطق بها • الفكرة كانت فى

راسها صاحية وحيّة ، لكنها لم تكن تخرج • كأنما كانت تصطدم بجدار سميك •• أكثر سمكا من عظام رأسها •

كانت كلها أحاسيس • ولكن ما بداية أى شىء جديد ؟ •• كيف بدأ أى مكتشف غير العلم أو التاريخ ؟ •• أليست البداية أحاسيس •• ؟ وما هو الاحساس ؟ •• فكرة مبهمة •• حركة غامضة فى خلايا المخ •• نعم ، الاتكون البداية دائما حركة غامضة فى خلايا المخ •• لماذا اذن تهزأ بأحاسيسها ؟ •• لماذا تكذبها ؟ ألم تحس حين رأت الساعاتى لأول مرة أنه لص ؟•• أخدعت أحاسيسها بالعمارة الشاهقة والسيارة الطويلة ؟•• هل غيّرت الهيئة العليا والمجلس السياسى وكلام الصحف من أحاسيسها الاولى ؟•• ألم تظل رغم كل هذا تنظر فى عينيه الجاحظتين وتحس أنه لص ؟•• ألم تلتقط خلايا مخها ذلك الكذب اللامرئى فى ذبذبة عينيه ؟ لماذا اذن تهزأ بأحاسيسها ؟ •••

وتوقفت لحظة عن السير وسألت نفسها : هل شكّت فى أحاسيسها أبدا ؟ •• ومتى بدأت تشك ؟ •• متى ؟ •• وتلفتت حولها ، واصطدمت عيناها بباب المطعم الصغير وتذكرت • انها تلك الليلة • تلك الليلة المظلمة المتربة • حين دخلت المطعم ورأت المائدة خالية عارية بغير فرش ، والهواء يضربها من كل ناحية كجذع شجرة مبتور •

واقتربت قدماها من باب المطعم فى وجل •• أتدخل ؟•• أتلقى نظرة ؟•• ربما •• ربما تجده •• ربما يكون قد عاد • وانتقلت قدماها خطوة خطوة ناحية الباب • ووقفت لحظة تلتقط أنفاسها ، ثم دخلت الممر الطويل يحوطه الشجر ، قدماها ترتجفان وقلبها يخفق ، ستخرج من الممر وتنظر الى المائدة ولا تجده ، خير لها

آن تعود الآن ، خير لها أن تعود وفى نفسها بعض أمل ، انه هناك موجود ، جالس الى المائدة ، ظهره مائل قليلا الى الامام ، وشعره الأسود الغزير ، وأذناه المحتقنتان بالدم دائما ، وعيناه البنّيتـان اللامعتان ، يتحرك فيهما ذلك الشىء الغريب ، الشىء الذى تحسه ولا تراه ، الشىء الذى يجعله هو نفسه ، بذاته المنفردة عن الآخرين وكلماته وأفكاره ورائحته الخاصة ، هو فريد وليس رجلا آخـر كالملايين •

واستدارت لتعود • لكن قدميها تحركتا الى الامام ، وسارتا الى نهاية الممر وانحرفتا الى اليسار • ووقفت لحظة مطرقة لا تقوى على رفع رأسها • ثم رفعت رأسها • وارتطمت عيناها بجدار من الطوب • اختفت المائدة واختفى كل شىء ولم تر الا جدارا قصيرا بُني فى العراء كتلك الجدران القصيرة التى تُبنى فوق الموتى •

وسمعت صوتا خافتا من ورائها يسأل : هل تريدين سمكا ؟ ونظرت خلفها • ورأت امرأة تحمل طفلا • لم يكن طفلا • كان هيكلا عظميا صغيرا يفتح فكيه الصغيرتين الخاليتين من الأسنان ويقبض بهما على ثدي ضامر جاف ، يتدلى من صدر المرأة كقطعة من جلد الاحذية. ونظرت اليها المرأة بعينين نصف معتمتين ملتصقتى الرموش وقالت بصوت ضعيف : هل تريدين سمكا ؟ •• وابتلعت فؤادة لعابها المر وقالت فى شرود : كان هنا مطعم صغير • وقالت المرأة : نعم • ولكنه افلس وترك المكان •

وسألت : ومن أخذ المكان ؟ •• قالت المرأة : البلدية •

وسألت : ومن بنى هذا الجدار ؟ •• وقالت المرأة : البلدية •

وسألت وهى تتلفت حولها للعراء الواسع : ولماذا بنته ؟

وردت المرأة وهي تشد ثديها الجاف وتدسّه بين فكي الطفل : زوجي يقول ان البلدية تبني هذه الجدران لتكتب عليها اسمها ٠

ونظرت اليها المرأة من خلال رموشها الملتصقة ثم قالت : هل تريدين سمكا؟٠

وابتسمت ابتسامة واهنة وقالت : ليس اليوم ٠ ربما آتي ، لأشتري يوما ٠

وخرجت من الباب الصغير وسارت في الشارع ٠ لم يعد هناك أمل ٠ لم يعد هنـاك شيء ٠ لم يعد الا جدار من الطوب ٠٠ جدار قصير بُني في العراء لا يصلح لشيء سوى أسماء الموتى ٠

نعم ، لم يعد الا جدار ٠ وهل كان هناك شيء آخر ٠٠ ليس هناك شيء ٠ كل شيء اختفى كأنه حلم ٠ وما الفرق بين الحقيقة والحلم؟٠ لو ترك ورقة صـــغيرة بخط يده لاستطاعت أن تعرف ٠٠ ورقـــة عليها حروف تستطيع أن تفرق بين الحلم والحقيقة ، أما هي برأسها وذراعيها وساقيها فلا تستطيع ٠

وهزت رأسها في ضيق ٠ كان رأسها ثقيلا كأنمـــا تحجّر ٠ كأنما أصبح هو الآخر جدارا من الطوب ٠ وهل كان شيئا آخر ؟ ٠٠ هل كان شيئا سوى جدار مصمت يردد الصدى ٠ يردد ما ســـمع وما قرأ ٠ هل قال شيئا من عنده ؟ ٠٠ هل قال شيئا جديدا لم يقله أحد من قبـــل ؟٠٠ ألم يكن يطلق ذلك الصفير الحاد المتواصل حين تصمت كل الأشياء ؟

وبدأ الصفير يطن في رأسها فامسكته بين يديها وجلست على السور الحجري ، وظلت مطرقة لحظة ثم رفعت عينيها المحتقنتين بالدم الى السماء ٠ أكان كل ذلك حلما ؟ ٠٠ أكانت أحاسيسها وهما ؟٠٠

واذا كذبت أحاسيسها فماذا تصدق ؟ ·· ماذا يمكن أن تصدق ؟ ·· اسما مكتوبا على جدار ؟ ·· اسما مختوما فوق بحث ؟ ·· كلمة مطبوعة فى صحيفة ؟ ···

ودارت بعينيها الحمراوين فى السماء · وانت يا سماء ·· هل انت الجدار العلوى الذى يصنع السقف ؟ ·· هل انت جدار مصمت كأى جدار ؟ ·· وهزت يديها فى الهواء وقالت بصوت عال : هـــل أنت جدار ؟ ·· لماذا تصمتين ؟ ·

وحملق فيها رجل كان يسير فى الشارع · واقترب منهـــا يتفحصها بعينيه الضيقتين السوداوين ثم ابتسم نصـــف ابتسامة وقال : ادفع لك ريالا فقط ، ان ساقيك رفيعتان ، ونظرت اليه فى ذهول ثم رفعت جسمها الثقيل من فوق السور وحملتها قدماهـــا بغير وعى منها الى بيتها ·

***

كان باب البيت مفتوحا ، والصالة مليئة بالنـــاس · وجوه تعرفها ووجوه لا تعرفها·كانوا ينظرون اليها بعيون غريبة ·وسمعت صوتا عاليا كالصراخ · ورأت وجها يشبه وجه أمها بغير تجاعيـد · انها خالتها سعاد بجسمها السمين وفستانها الاسود الضيق وسمعت صوتها الحاد يصرخ : فؤادة ···

وحوطتها بذراعيها السمينتين القصيرتين ، والتف حولهـــا نساء كثيرات يصرخن فى صوت واحد وتفوح من ملابسهن السوداء رائحة عطر · وكادت تختنق فدفعت عنها الاجسام السمينة وصاحت بأعلى صوتها : ابتعدوا عنى ·· !

وتفرقت من حولها النســـاء مذعورات · وســـارت بخطوات ثقيلة بطيئة الى حجرة أمها . كانت نائمة فـــوق السرير وقد

غطي جسمها ورأســـها • واقتربت منهـا بخطوات وجلة • ومدت يدها بحذر لتكشف الغطاء • وظهر رأس أمها ملتفا بالطرحـة البيضاء ، ووجهها ذو التجاعيد ، وعيناها مغمضـتان ، وفمها مطبق ، والحلق الذهبى الصغير فى أذنيها • انها نائمة كما كانت تنام ، لكن أنفاسها ليست عالية • وتفرست فى وجهها. كانت ملامحها تتغير شيئا فشيئا ، كأنما تهبط فى وجهها وتلتصـق بعظامها ويضيع منها الدم •

وسرت فى جسمها قشـعريرة ، أصبح وجه أمهـا كوجه تمثـال من الجرانيت يشـع برودة غريبة ، وأعادت الغطاء فوق الرأس وهى ترتعد ، ودوى الصراخ فى أذنيها كصفير حاد متصل • وسـارت الى حجرتها كالتائهة ، لكن حجرتها كانت مليئة بوجوه لا تعرفها ، وخرجت الى الصالة ، كانت العيون الجاحظة الغريبة تحوطها وتحاصرها ، والصراخ يدوى فى رأسها • وسارت ناحية الباب بغير وعى ، واختفت خلف الباب لحظة ثم هبطت السلم وخرجت الى الشارع تجري •

لم تكن تعـرف الى أين هى تجرى ، لـكنها كانت تجرى وتتلفت وراءها كأنما يطاردها شـبح ، كانت تريد أن تهرب الى مكان بعيد لا يراها فيه أحد ، لكنه لم يدعها تهرب ، لمحهـا وهى تجرى فى الشـارع فأوقف العربة الزرقاء وجرى خلفها ، وامسكها من ذراعها قائلا : فؤادة •• الى أين تجرين ؟ •• ووقفت تلهث • ورأت عينيه الجاحظتين ترتجان من تحت زجاج النظارة • وقالت بصوت خائر : لا أدرى •

وقال : طلبتك بالتليفون منذ ساعة وعرفت الخبر • واطرق الى الأرض ثم قال : جئت لأعزيك •

وتلتفت حولها • كان الصراخ لا يزال يدوى فى أذنيها ،

وعيون غريبة جاحظة تحاصرها من كل ناحية . واخفت وجهها بين يديها وأجهشت بنشيج مكتوم . وأسندها الساعاتى واجلسها وانطلقت بهما العربة من شارع الى شارع ، وفى الأفق البعيد كانت ذؤابة الشمس الأخيرة تنطفىء ، وانتشرت فى السماء أجسام رمادية مضرجة بدماء باهتة ، وخرجت العربة الى الخلاء ، ولمعت رمال الصحراء تحت ضوء العربة . وتذكرت وجه أمها فى الصباح حين كانت تنظر اليها قبل أن تخرج ، كان فى عينيها نظرة غريبة .. نظرة مستجدية ضعيفة تطلب منها أن تبقى معها ، لكنها لم تر هذه النظرة بوضوح كما تراها الآن ، ربما رأتها وتجاهلتها بغير عمد ، كثيرا ما تجاهلت نظراتها الصامتة ، كثيرا ما تجاهلتها ، كانت تريد أن تسرع وتخرج ، لماذا كانت تسرع ؟.. لماذا كانت تخرج ؟ .. الى أين كانت تذهب ؟ .. لماذا لم تبق معها ذلك اليوم الأخير ؟ كانت وحدها ، وحدها تماما ، ربما نادتها ولم تجدها ، ربما أرادت شيئا من الماء فلم تجد أحدا . لماذا تركتها فى ذلك اليوم ؟ .. أيمكن أن يعود ذلك اليوم مرة أخرى ؟ ..

وتدفقت الدموع فى أنفها وحلقها ، ففتحت فمها للهواء ولهثت . كانت العربة قد وقفت ، والساعاتى الى جوارها جالس صامت ، ينظر الى وجهها الطويل الشاحب ويتأمل عين الخضراوين الشاردتين . ومد يده السمينة الطرية وأمسك يد النحيلة المرتجفة ، وقال : لا تحزنى يا فؤادة . هذه طبيعة الحي لا توجد حياة بغير موت . وسكت لحظة ثم قال : ما فائ الحزن ؟ .. لا شىء الا المرض .. انا لا أحزن أبدا . واذا حد لى ما يحزن فانى أفكر فى الأشياء المفرحة ، أو أسمع لحنا مرحا

ومد يده الى الراديو وأداره . وانبعث لحن راقص . وتجمدت الدموع في حلقها كالغصة وأحست باختناق ففتحت باب

الغربة وخرجت الى الصحراء . كان فى الهواء برودة خفيفة شدت عضلاتها ، لكن جسمها كان كالعبء الثقيل ، وحركت ساقيها لتنفض عنها ذلك العبء المزمن لكنه ظل جاثما فوقها ، وفتحت فمها لتصرخ وتطرد الغصة من حلقها لكن عضلات فمها كانت تنقبض وتنبسط دون أن تطرد شيئا ، وهبطت الغصة الى رقبتها فبدأت عضلات رقبتها تنقبض وتنبسط ، لكن الغصة انتقلت الى صدرها وبطنها ، وبدأت عضلات صدرها وبطنها تنقبض وتنبسط ، وزحفت الغصة كالدودة الى جميع اجزاء جسمها فأصبحت عضلاتها جميعا تنقبض وتنبسط فى اهتزازات سريعة عنيفة كتشنجات الصرع ، كانت تريد أن تتخلص من ذلك الشيء الحبيس فى أنسجتها .

وكان اللحن يرن فى الصحراء الساكنة ، لم تكن تسمعه ، ولكنه كان يسرى فى الهواء ويدخل ويخرج مع أنفاسها ، كانت تلهث وتريد أن تتوقف لكن عضلاتها أفلتت من قبضة وعيها وانطلق جسمها يهتز مع اللحن ، يفرز سموم الطاقة الحبيسة ويستشعر متعة الرقص بغير وعى .

نعم ، كانت غائبة عن الوعى ، وكانت تستمتع بلذة الحركة العنيفة ، لكن نقطة صغيرة فى رأسها ، ربما خلية واحدة من خلايا مخها ، كانت لا تزال تحتفظ بوعيها ، ولا تزال تعرف أنها فى الصحراء ، وأن الساعاتى يقف وراءها ، وأنها حزينة حزنا شديدا ، أمها ماتت ، وفريد غائب ، وفكرة البحث ضائعة ، وحياتها فى الوزارة فارغة .

وهزت رأسها بعنف لتفصل عنه تلك الخلية الواحدة الواعية . لكنها لم تكن تنفصل أبدا . كانت قد تماسكت وتصلبت وراحت ترتج داخل رأسها وتمزق خلايا مخها الهلامية كقطعة زلط .

وانقطع اللحن فجأة . ربما بلغ نهايته ، أو ربما أطفـأ الساعاتي الراديو . وسقط جسمها فوق الرمل منقطع الأنفاس مبللا بالعرق . منذ متى لم يبلل جسمها مثل هذا العرق ؟ .. منذ متى لم ترقص رقصة الخلاص من سياج العقل ؟ .. منذ متى لم تسمع تيوردوراكس السجين ؟. منذ متى قال كازانزاكس لا ينقض الا الجنون ؟ .. لكن فريد كان يقاوم الجنون . كان يقول جنون فرد واحد معناه الحبس أو الموت ، ولكنه جنون الملايين . وماذا يصنع جنون الملايين يا فريد .. كان يقول المعرفة والجوع . الجوع موجود ولا ينقص الا المعرفة . لماذا لا يعرفون يا فريد ؟ وكيف يعرفون يا فؤادة وكل شيء من حولهم أما أخرس واما يكذب ؟

وفتحت عينيها . ووجدت نفسها راقدة فوق الرمل ، والى جوارها كتلة ضخمة من اللحم لها عينان جاحظتان يطل منهما شيء كاذب يتلصص . وسمعت صوتا غليظا يقول : أبدع رقصة رأيتها ، وأجمل راقصة في الوجود .. ! وحوطها بذراعيه وملأت أنفها رائحة الحديد الصدىء وانتشر في فمها اللعاب اللامع المر . ورأت عينيه الجاحظتين تبرزان وتتسعان تطل منهما نظرة غريبة مخيفة . وتلفتت حولها في فزع . ولم تر الا الصحراء والظلام . وحاولت أن تتنفس ولم تستطع ، فدفعته بعيدا عنها بكل قوتها ونهضت مسرعة لتجرى . وجرى وراءها .

لم يكن أمامها الا ظلام يتسع ، ومن خلفها ذلك الشبح الجاحظ العينين يطاردها ، وخيل اليها أن الأرض المنبسطة أمامها تعلو وتتكور لتصبح عينين كبيرتين جاحظتين وهي تجرى بينهما في خندق طويل ضيق ، وكانت السماء أيضا بكتلتها المقعرة السوداء قد أصبحت عينين كبيرتين جاحظتين تجثمان فوقها

وتضغطان عليها ، واصطدمت بشيء مقعر صلب وسقطت على الأرض فاقدة الوعى .

فقدت وعيها تماما فيما عدا تلك الخلية الواحدة الواعية استقطبت حواسها الخمس ، وظلت ترى وتسمع وتحس وتذوق وتشم ، وأحست الكف السمينة الطرية فوق صدرها ، وشمت رائحة الحديد الصدىء ، وذاقت طعم اللعاب اللاسع المر .

وتحولت الكف الطرية الى أصابع غليظة ترتعش . لم تكن رعشة ثابتة فى مكانها ، لكنها رعشة هابطة الى أسفل .. الى بطنها وفخذيها . ورأت رقبته المكتنزة باللحم كجذع شجرة عجوز يبرز منها برعم صغير أسود كان يمكن أن يعيش وينمو لكنه مات وتعفن . وقميصه الحريرى المفتوح يكشف عن صدر سمين أملس بغير شعر ، ويهبط الى حزام من الجلد مفكوك ، يدور حول بطن منتفخ عال تتدلى منه ساقان رفيعتان معوجتان بغير شعر ، وكان بطنه المرتفع يعلو ويهبط مع أنفاسه المتقطعة ، وتنبعث من داخله حشرجة خافتة غريبة كأنين ثور جريح .

وزحفت فوق جسدها برودة ثقيلة غريبة ، برودة لم يعرفها جسمها من قبل سوى مرة واحدة سابقة . كانت راقدة فوق ملاءة من الجلد ومن حولها أجهزة معدنية .. مشارط وابر ومقصات . وأمسك الطبيب ابرة حادة طويلة وغرزها فى ذراعها . وسرت فى جسمها تلك البرودة الثقيلة الغريبة فكأنما هى تغطس فى حوض ماء مثلج وجسمها يثقل ويغرق شيئا فشيئا .

ولم يكن تحتها ماء ، كان هناك شيء ناعم له ملمس الرمل ، وهواء بارد يدخل فى ثوبها المفكوك ، ولعاب مر لاسع يتجمع فى جوفها ، ورائحة صدئة عتيقة تسد أنفها ، والى جوارها كتلة ضخمة ممددة على الأرض ، تلهث وترتج ، وترتج معها عينان

جاحظتان مطفأتان وساقان رفيعتان مرتخيتان • وحاولت أن تفتح فمها لتبصق لكنها لم تستطع • واقترب جفناها الثقيلتان وانغلقتا •

***

فتحت عينيها لترى نور النهار يدخل من شقوق الشيش ، ونظرت حولها فى ذهول . كان كل شىء فى حجرتها كما كان دائما . الدولاب والشماعة والنافذة والسقف والدائرة المشرشرة ، وسمعت صوت القدمين تزحفان فى الصالة وتقتربان من حجرتها ، ونظرت الى الباب تنتظر ظهور وجه أمها ، لكن وقتا طويلا مر دون أن يظهر وجه أمها ، وانتفضت من فوق السرير واقفة على قدميها • لقد تذكرت ، وسارت بقدمين مرتجفتين الى الصالة ، واقتربت من باب حجرة أمها فى وجل ، أكان حلما ؟ •• أم أنها ماتت حقا ؟ •• ومدت رأسها لتنظر داخل الحجرة ، وارتطمت عيناها بالسرير الخالى وتراجعت الى الوراء فى ذعر ، وسارت الى المطبخ ، والى حجرة الطعام ، والى الحمام ، لم تكن أمها فى أى مكان • وأحست بدوار فأسندت رأسها الى الحائط ، كانت كتلة صلبة تلف وتدور داخل رأسها وترتطم بعظامه ، وشىء مر لاسع يلتصق بحلقها . وزحفت مستندة الى الحائط لتصل الى الحوض ، وفتحت فمها لتبصق لكن المرارة ضغطت على جوفها فتقيأت ، وفاحت الرائحة الصدئة الكريهة من فمها وانفها وملابسها . وخلعت ملابسها ووضعت جسمها تحت الماء الجارى ، وغسلته بالليفة والصابون ، لكن الرائحة لم تزل ، كانت قد نفذت الى أحشائها وخلاياها وامتزجت بدمائها .

وعادت تستند على الجدران الى حجرتها ، ودارت بعينيها المحتقنتين بالدم حولها ثم استقرت فوق وجه أمها معلقا بجوار الدولاب • ونظرت اليها أمها بعينيها الواسعتين الصفراوين تطل منهما تلك النظرة الضعيفة تستجديها أن تبقى ، وأخفت وجهها

بيديها ، ألا تكف أمها عن هذه النظرة الساحقة ؟ .. ألم تكفر عن ذنبها ؟ .. ألم تملأ جوفها بذلك العلقم اللاسع المر ؟ .. ألم تنقع جسدها فى تلك المرارة الصدئة المركزة ؟ .. هل هناك حزن أشد من هذا الحزن ؟ .. وما هو الحزن ؟ .. كيف يحزن الناس ؟ .. صراخ عال يجلو الصوت ويفرج عن الكبت ؟ .. ملابس سوداء جديدة تنعش جدتها الجسم ؟ .. ولائم وذبائح تفتح الشهية وتملأ البطن ؟.. أهناك أم ماتت وحظيت بأكثر من هذا الحزن ؟ .. هل خلفت أم ابنة تتجرع من بعدها السم ؟ .. أهناك وفاء للأمومة أكثر من هذا الوفاء ؟ .. أهناك سداد لديون البنوة أكثر من هذا السداد ؟ ..

وسارت الى السرير تحس بعض ارتياح ، وفردت ذراعيها وساقيها ، لا زال جسمها ثقيلا ولا زال جوفها مرا ، متى ؟ .. متى يضيع هذا الثقل تماما وينتهى العبء ؟ ..

وانبعث من التليفون الجرس . انه هو ، لا احد غيره ، لم يعد هناك شيء سواه ، لم يبق الا أن تتجرع السم يوما بعد يوم . ستملأ جوفها بالعلقم اللاسع المر ، وستنقع جسمها فى المرارة الصدئة المركزة . لم يبق الا الموت البطيء .

ومدت يدها النحيلة الصفراء ورفعت السماعة ، وجاءها الصوت الغليظ اللزج : صباح الخير يا فؤادة . كيف أنت ؟ ..

وقالت بفتور : أعيش .

قال : ماذا ستفعلين الليلة ؟

قالت : لا أدرى . لم يبق لى شيء .

قال : وأين أنا ؟ .. أنا الباقى لك .

قالت : نعم ، لم يبق الا انت .

قال : سأمر عليك بالمعمل فى الثامنة والنصف .

＊＊＊

كانت على وشك أن تخرج من باب البيت حين لمحت شيئا، شيئا أبيض يلمع من وراء الزجاج ، وعادت الى الوراء بضع خطوات وقربت عينيها من الصندوق ، نعم ، كان هناك خطاب ، وبدأ جسمها ينتفض ، وفتحت الصندوق وأمسكت الخطاب بأصابع نحيلة طويلة ترتجف ، والتقطت عيناها الحروف المربعة الكبيرة وتلك التاء الطويلة ذات الذيل الملفوف ، ودب قلبها ، انه خط فريد . وتلفتت حولها فى ذهول ، حلم أم حقيقة ؟ .. ورأت السلم والباب وصندوق البريد ، ومدت أصبعا مرتجفا ولمست صندوق البريد . نعم ، انه موجود ومحسوس ، وضغطت بأصابعها على الخطاب ، انه ورقة حقيقية لها سمكها وكثافتها . ورفعت أصبعها الصغيرة ولمست جفنها ، انه مفتوح .

وقلبت الخطاب على ظهره وبطنه ، وتفقدت زواياه وأطرافه ، لم يكن عليه الا اسمها والعنوان ، وقربته من أنفها ، وشمت الرائحة المميزة للورق وختم البريد ، وفتحت الخطاب وسحبت ورقة طويلة شفافة تملؤها السطور :

فؤادة ..

كم يوم مضى منذ لقائنا الأخير .. منذ تلك الليلة القصيرة المحملة بأول رياح الشتاء ، كنت تجلسين أمامى ومن خلفك النيل ، وفى عينيك ذلك البريق الغريب الذى يقول : عندى شيء جديد ، وأصابعك الطويلة الرفيعة تنقر على ظهر المائدة بهدوء يخفى من تحته بركانا مكتوما . كنت صامتة وعرفت أنك تتألمين . وقلت لى بعد صمت طويل : ما رأيك يا فريد ؟ . سأترك الوزارة . كنت أفهمك ، وأردت أن أقول لك فى تلك اللحظة : أتركيها وتعالى

معى • لكنك تذكرين اننى لم أرد • كنت أحس أن لك دورا آخر غير دورى • كان دورك هو أن تصنعى شــيئا جديدا لو أعطيت الفرصة . وكان دورى هو أن أصنع الفرصة ليصنع النــاس الجــديد • وما الجديد ؟ •• تغيــير القديم ؟ •• وماذا يصنع التغيير ؟ .• أليس هو التفكير ؟ .. هل تذكرين ؟ .. ذلك الطفل الصغير الذى يدور حول الموائد فى المطعم .. هل تذكرين يده اليابسة المشققة وهو يمدها من أجـل قطعة خبز أو قرش ، وكان الناس يشفقون عليه ويعطونه قرشا بغير تفـكير ، لو انهم فكروا ماذا يفعل قرش .. ! لو انهم فكروا لماذا هو يجوع .. ! ، نعم يا فؤادة ، انه التفكير • انها الفكرة التى تخرج من الرأس ، وهل تخرج الفكرة من الراس بغير نطق ؟ ..

كان دورك ان تصنعى الفكرة وكان دورى ان أصنع النطق . ولم أكن أستطيع وحدى شيئا .لم يكن دورى سهلا أو مقنعا كما تبدو الكلمات سهلة ومقنعة . كان نوعا من الجنون ، فكيف تنطق الأفواه المكممة ؟ •• وكيف ينفذ الصوت من خلال كمامات سميكة كالجدران ؟ •• كان نوعا من الجنون ، وجنون فرد واحد لا يصنع شيئا ولكنها الجموع ، هل تذكرين ذلك الحوار القديم ؟ ••

أجل ، لم اكن واحدا ، كان معى آخرون . لم نملك الا ذلك الدور البسيط الخطير ، تلك الكلمــات الطبيعية البســيطة التى ولدت مع أول انسان ... ان يفكر وان ينطق . لم تكن الا هذه الكلمات نقولها ونكتبها • لم تكن مدافع أو بنادق أو قنابل • كانت كلمات فحسب .

وافترقنا فى تلك الليلة القصيرة . وسرت وحدى فى شارع النيل • كنت أفكر فيك • كنت أحس انك تتألمين • ان فى أعماقك فكرة جديدة تصارع من أجل الخروج . تصارع وحدها جدرانا

عالية ••• فى الوزارة والبيـــت والشارع وعظام رأســـك ، نعم يا فؤادة ، كان هناك جدار آخر فى رأسك ، جدار قصير لم يولد معك . لكنه بُني يوما بعد يوم من الصمت الطويل . وقلت لنفسى ليلتها وأنا أسير : انه جدار قصير وسينهار حتما حين تنهار الجدران الأخرى .

ولم أصــل الى البيت ، كان هنــاك رجل يتعقبنى ، أظن أنه لم يكن واحدا ، كانوا أكثر من واحـــد ••• بل كانوا كثـــيرين مسلحين ، ولم يكن معى شيء ، تذكرين ،كنـــت أرتـــدى القميص البنّي والبنطلون ، وفتشوا جيوبى ، ولم يجدوا شيئا ، وهل توضع الكلمات فى الجيوب ؟ •• وأمســكوا بى ووضعونى فى الحديد ، لكن الكلمات حملها الهواء فهل يمسكون الهــواء ويضــعونه فى الحديد ؟ ••

الجدران من حولى ، لكنك معى . احس يدك الصغيرة الناعمة على وجهى وأرى عينيك الخضراوين فى عينى ، يطل منهما ذلك الشيء الجديد الحبيس يريد أن ينطق ولا يستطيع . لا تحزنى يا فؤادة ولا تبـكي ، فالكلمات فى الهواء خارج الجدران ، تعيش وتدخل مع الهواء الى الصدور . وسيأتى حتما يوم تسقط فيه الكمامات وتنطق الأفواه من جديد •

فريد

انتهت

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٢٨١٥٧-٨٣٧٧٠٢ - بيروت - لبنان



قصص وروايات الدكتورة نوال السعداوي
من منشورات دار الآداب

* * *

- ☐ امرأتان في امرأة
- ☐ امرأة عند نقطة الصفر
- ☐ موت الرجل الوحيد على الارض
- ☐ الأغنية الدائرية
- ☐ موت معالي الوزير سابقاً
- ☐ الخيط وعين الحياة
- ☐ الغائـــب
- ☐ كانت هي الأضعف
- ☐ مذكرات طبيبة
- ☐ تعلّمت الحبّ
- ☐ حنان قليل
- ☐ لحظة صدق